

# كتاب الهلال

## خديجة أم المؤمنين

تقديم

طاهر الطنحاحي

تأليف

السيد عبد الحميد الزهرادي



سلسلة ثقافية شهرية



# كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس التحرير: طاهر الطنحجي

الإشراف الفني

سكرتير التحرير

سميحة حسنين

رمزي سعد

العدد ١٣٥ - محرم ١٣٨٢ - يونية ١٩٦٢

No. 135 — JUN 1962

مركز الإدارة

دار الهلال ١٦ ش. هـ

اهداءات ٢٠٠١

أ. د. محمد عبد الله

العربية  
سوريا  
اتحاد  
و (بالط)  
دولارات ونصف - في سائر أنحاء العالم ١٧٠ قرشا  
صاغا أو ٣٥ شلنا

المصري  
جراح بالمستشفى الملكي  
١٢ قرشا صاغا  
٥ قرشا صاغا  
٣٥ شلنا



# كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع



# خديجة أم المؤمنين

---

تأليف  
السيدة عبدة الحميد الزهراوى

تقديم  
طاهر الطناحى

---

حقوق الطبع محفوظة لدار الهلال



## الكتاب والمؤلف

بقلم الأستاذ طاهر الطنّاسي

لعل هذا الكتاب هو أول كتاب يحوى أوسع بحث عن السيدة خديجة أم المؤمنين زوجة النبي محمد عليه السلام، التي تزوجها في عنقوان شبابه ، وقبل بعثه رسولا من الله الى الناس بخمسة عشر عاما . وعاشت معه خمسة وعشرين عاما زوجة واحدة لم يتزوج عليها سيدة أخرى ، حتى بلغ الخمسين من عمره ، في حين كان تعدد الزوجات قبل الاسلام عادة شائعة بين العرب . وقد وفى لها بعد وفاتها ، فمكث مدة وحيدا ، حتى أشفقت عليه من وحدته سيدة مسلمة فخطبت له بأذنه عائشة بنت أبى بكر . ثم تزوج معها من تزوج من أمهات المؤمنين ، لا لمجرد الزواج ، بل لعدة أسباب بعثته عليه السلام الى تعدد الزوجات : منها صلة الرحم والضم بها عن المهانة ، ومنها المحافظة على هؤلاء الزوجات من الفتنة ومتاعب العيش ، فقد كانت معظمهن ارامل ممن مات أزواجهن في الحرب أو الهجرة الى الحبشة ، أو خيف عليهن الارتداد عن الاسلام والعودة الى حياة المشركين

وقد كانت السيدة خديجة هي الزوجة الوحيدة التي ولدت له عددا من البنين والبنات ولم تلد له زوجة من أزواجه ولدا ماعدا مارية القبطية التي أهداها اليه المقوقس حاكم مصر . فقد ولدت له ابنه ابراهيم . وكانت خديجة

بنت خويلد أول من آمن برسالته حين رجع إليها من غار حراء يئسها بقصة الملك جبريل ، الذى بشره بالرسالة ، ونزل إليه بأول سورة فى القرآن هى قوله تعالى : « اقرا باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرا وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم »

واذا درسنا الحياة الزوجية للنبي محمد ( ص ) وجدنا انها بمعناها الكامل من الهناء العائلى والفبطة بالامومة والابوة ، تتمثل فى زواج محمد بخديجة ، فى تلك السنوات الطويلة ، التى لم يعكر صفوها خلاف بين الزوجين ، ولا غيرة بين عدة زوجات يدفعن زوجهن الى المخاصمة والقطيعة وتهديد الله لهن بأن يزوجه خيرا منهن مؤمنات قانتات



وفى هذه الحياة الزوجية السعيدة التى عاشها النبي (ص) مع خديجة بنت خويلد يصح أن نقول انه لم يتزوج النبي محمد عليه السلام الا زوجة واحدة طول حياته كائسان، لا كنبى صاحب رسالة ، وأن حياة هذه الزوجة جديرة بأن تدرس وتبحث ، وأن يوضع فيها هذا الكتاب الذى ألفه علم من اعلام الاسلام ، وعربى من خيرة العرب دينا وعزيمة ووطنية وهو الزعيم السورى الشهيد السيد عبد الحميد الزهراوى

فلقد جمع هذا الكتاب النفيس عددا من الفصول القيمة عن بيئة خديجة العربية وتاريخ هذه البيئة وأوضاعها الدينية التى سبقت الاسلام ، وقد تحدث المؤلف عن قومها قریش ، وبيوتاتهم القرشية ، وعاداتهم العربية الاصيلية ثم تناول فضائل خديجة وما كانت عليه من أخلاق وصفات وجمال ، وما كان لها من ثروة كبيرة وعناية بالتجارة بين مكة والشام ، وبين مكة وجنوب الجزيرة العربية . وكيف عاينته بعدما أرسله



الله رسولاً الى الناس عشر سنوات دافعت فيها دفاعاً مجيداً عن صادق نبوته ، هي وعمه أبو طالب الذي توفي معها في سنة واحدة ، وكانت وفاتها و وفاة أبي طالب خسارة له في ذلك الحين اطمعت فيه المشركين في مكة حتى اضطر الى الهجرة أولاً الى الطائف ، واضطر فيما بعد الى الهجرة الى المدينة

\*\*\*

واذا كانت الى جانب كل عظيم سيدة يعتمد عليها في جهاده ، وفي الوصول الى أهدافه ، فقد كانت خديجة تلك السيدة العظيمة التي ناصرت نبوة محمد ، وعاونت على رفع راية الاسلام ، وجاهدت في سبيل الدعوة الاسلامية عشر سنوات لم تخل فيها زوجها يوماً من الايام ، ولم تقف مع عدوه ضده ، ولم تتردد في صدق رسالته أو تكن في الصفوف الاخيرة ، ولم تتعصب لما كانت عليه هي وقومها من عبادة الاوثان ، بل كانت الاولى في كل شيء : في سماحة الخلق وجمال الطلعة ، ووفاء الزوجة وشرف النسب وكرم المحتد ، والايمان بما جاء به محمد عليه السلام ، بعقيدة ثابتة ، ونفس مخلصة وقلب سليم

وقد جاهدت خديجة بنت خويلد في سبيل الدعوة الاسلامية التي جعلت من العرب أمة عظيمة ودولة جلييلة الشأن أمام دولتين عظيمتين في ذلك الزمان ، هما : دولتا الفرس والرومان . وإذا كانت لم تشترك بالسيف في المعارك التي قادها أبطال العرب وأدت الى سقوط هاتين الدولتين ، كخالد بن الوليد ، وسعد بن أبي وقاص ، وعمرو بن العاص ، فان نصرها لهذه الدعوة المحمدية في أول ظهورها واشراق نورها يعتبر أول نصر على هاتين الدولتين ، وأول معول لهدم ما كانت عليهما من عظمة وسعة ومجد . فهي لهذا أول سيدة في الاسلام جاهدت

فى سبيل الاسلام وفى سبيل رفعتة ونجاح هذا النبى  
العربى الكريم ، وفوز العرب والقومية العربية بهذه  
الفتوحات الواسعة والسيادة الكبرى  
ومن حسن الاتفاق فى هذا الكتاب أن مؤلفه علم من  
أعلام الاسلام ، ومجاهد عربى كبير ، قضى حياته فى نشر  
تعاليم الاسلام ورفع شأنه ، وعاش ما عاش مواطننا عربيا  
يدافع عن العروبة وعن القومية العربية ضد الاستبداد  
والمستبدين ، وضد الاستعمار والمستعمرين ، حتى سقط  
شهيدا فى ميدان الجهاد

\*\*\*

وقد كان رحمه الله سورى المولد ، فقد ولد فى مدينة  
حمص ، ونشأ فيها من عائلة شريفة النسب ، كريمة  
المحتد ، وتلقى علوم اللغة والدين عن كبار شيوخها  
وأدبائها . وكان الاستبداد العثماني - فى شبابه - شديد  
الوطأة على بلاده، فهاجر الى القاهرة ينشد الحرية والامان،  
فانضم الى تحرير صحيفة « الجريدة » التى كان يرأسها  
أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد ، ثم اشترك فى تحرير  
جريدة المؤيد . وفى ذلك الحين أصدر هذا الكتاب  
« خديجة أم المؤمنين »

وقد عاش فى القاهرة نحو ثمانية أعوام ، فقد نزلها فى  
نحو ١٩٠٠ الميلادية . ولما أعلنت الدولة العثمانية الدستور  
سنة ١٩٠٨ وانهار نظامها القديم عاد الى بلده حمص ،  
ورشح نفسه لعضوية المجلس النيابى العثماني (المبعوثان)  
فاختير باجماع الحمصيين لتمثيلهم فى هذا المجلس . فكان  
أول نائب لحمص فى عهد الحكم الجديد

وقد اشتهر السيد عبد الحميد الزهراوى بدفاعه المجيد  
عن حقوق العرب فى مجلس المبعوثان وفى الصحف العربية  
والتركية ، وفى المؤتمرات التى عقدها العرب للخلاص من

الاستبداد وتحقيق الاصلاح المنشود للبلاد السورية . وقد  
تزعّم المؤتمر الذي عقدته الجالية العربية في باريس في شهر  
مارس سنة ١٩١٣ مع زعماء الاحزاب والهيئات السورية  
التي رأت عقد هذا المؤتمر لبحث التدابير التي يجب  
اتخاذها لوقاية الوطن من الطوازيء واصلاح البلاد  
العربية على قاعدة اللامركزية !

وقد ناب الزهراوى في هذا المؤتمر عن حزب اللامركزية  
العثمانى الذى ألفه سنة ١٩١٢ مع بعض كرام السوريين ،  
وكان الاستاذ اسكندر عمون وكيل هذا الحزب . وتألفت  
لجنة المؤتمر الادارية من محمد الحمصانى ، وشكرى غانم  
وعونى عبد الهادى ، وجميل مردم ، وعبد الفنى العريس ،  
وندره المطران ، وجميل معلوف ، وشارل دباس . وأفتتح  
المؤتمر جلسته الاولى يوم الاربعاء ١٨ يونيو سنة ١٩١٣  
بقاعة الجمعية الجغرافية بشارع سان جرمان بباريس ،  
فكان اول مؤتمر يعقده العرب لمطالبة الدولة العثمانية  
بحقوق العرب

وقد اختار المؤتمر بالاجماع السيد عبدالحميد الزهراوى  
رئيسا ، وأصدر في آخر جلساته القرارات الآتية :

١ - ان الاصلاحات الحقيقية واجبة ، وضرورية للمملكة  
العثمانية ، ويجب أن تنفذ بوجه السرعة

٢ - من المسلم به ان يكون مضمونا للعرب التمتع  
بحقوقهم السياسية . وذلك بأن يشتركوا في الادارة  
المركزية للمملكة اشتراكا فعليا

٣ - يجب أن تنشأ في كل ولاية عربية ادارة لامركزية ،  
تنظر في حاجاتها وعاداتها

٤ - اللغة العربية يجب أن تكون معتبرة في مجلس  
النواب العثمانى ، ويجب أن يقرر هذا المجلس ان اللغة  
العربية لغة رسمية في الولايات العربية

٥ - تكون الخدمة العسكرية محلية في الولايات العربية  
 الا في الظروف والاحيان التي تدعو الى الاستثناء الاقصى  
 ٦ - يصادق المؤتمر، ويظهر ميله لمطالب الارمن العثمانيين  
 القائمة على اساس اللامركزية ، ويرسل لهم تحياته بواسطة  
 مندوبيهم ، ويحيى العراق

وقد بذلت الحكومة العثمانية لدى حكومة باريس جهودا  
 لتحول دون عقد هذا المؤتمر ولكنها لم تنجح ، ولجأت الى  
 طرق أخرى لمنع عقده ، فأخفقت وجنحت الى التفاهم ،  
 فأرسلت وفدا من رجالها اتصل بزعماء المؤتمر ، وانتهى  
 البحث بوعد من الحكومة العثمانية بتنفيذ الاصلاحات  
 المطلوبة ، واصدرت لذلك عدة قوانين وتشريعات ، ولكنها  
 ظلت حبرا على ورق ، وظل الزهراوي ورفاقه يجاهدون  
 في سبيل الاصلاح السياسى ، ويطالبون بحقوق العرب .  
 وقد أصدر في الاستانة جريدة الحضارة لتكون لسان  
 الحركة القومية الجديدة ، وبقيت هذه الجريدة تقوم  
 بواجبها وتؤدي رسالتها الوطنية العسرية حتى قامت  
 الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤ فأغلقت ، وعاد الزهراوي  
 الى بلده « حمص » يواصل جهاده حتى اعتقلته السلطة  
 العسكرية التركية بقيادة جمال باشا السفاح في اليوم  
 الخامس من شهر مايو سنة ١٩١٦ وأعدمته بلا محاكمة في  
 فجر اليوم التالى في ساحة الشهداء بدمشق ، مع بعض  
 زعماء العرب السوريين واللبنانيين الذين اعتقلهم هذا  
 السفاح . وكان اول زعيم عربى لقي حتفه في ذلك الحين  
 دفاعا عن العروبة والعرب ثم تلاه في ذلك اليوم ، وفيما  
 يليه من ايام سائر الشهداء الذين بلغ عددهم ستين شهيدا  
 أعدمتهم حكومة الاتحاديين أثناء الحرب العالمية الاولى  
 رحمه الله ورحم زملاءه الاحرار

**طاهر الطناحي**

## اهداء

دخل هذه الدار - دار الفناء - عدد لا يحصى من بنى آدم بمجموعهم عمرت القرى والامصار ، وتقدمت العلوم وازدهرت الاعمال . واذا فتحت كتب السير والتاريخ ، لا تجد ذكرا لعشر من دخلها ، ولا لعشر عشرهم ، ولا لواحد في الف الالف منهم ، فلماذا يعنى المؤرخون بهذا القليل من بنى آدم ويهملون الكثيرين منهم ؟..

ليس بعجيب ما صنع المؤرخون ، فان الكثيرين من بنى آدم متشاكلو السيرة ، متشابهو الحالة والغاية ، على ما بين سيرهم من التغيرات ، وبين احوالهم من التفاوت ، وذلك ان حاصل امرهم تعب وكد ومزاحمة وحيرات وحسرات في تحصيل ما اشتهاوا أو تعودوه من المطالب جل أو . تفر ، فماذا عسى أن يذكر المؤرخ من حكايات هؤلاء التى يمكن أن تكتب كلها هكذا « جاءوا الى هذه الدنيا فاشتغلوا بأسباب معاشهم ، وعاشوا خاضعين للغالب ، وذهبوا غير تاركين أثرا في هذه الدار إلا ان كان ولدا على شاكلتهم »

وأما أولئك الافراد القليلون الذين لهم بعد مماتهم وجود ظاهر بالآثار ، فان في سيرهم للتاريخ ذخرا من غرائب الاستعداد الانسانى ، وبدائع مظاهره ، وجلائل مآثره ، وأمثلة التفاوت بين أفرادهم ، والارتقاء والتكامل في مجموعهم ، بواسطة آحاد من جملة ، وبذلك يستمد

التاريخ جدته كل يوم ، وياخذ المزيد لروثقه عند كل فرد وكل قوم

وأولئك الافراد صنوف : فرسول مبشر ، وحكيم مبصر ، وكاتب مفكر ، وشاعر مذكر ، وفاتح مغير ، ومخترع محير ، وكاشف منور ، وباحث مصور ، واجتماعى محور ، وشرعى مقرر ، ونصاح مبرر ، ولسانى مفسر ، ومفضل ميسر



هؤلاء الصنوف أقطاب ، التاريخ على أخبارهم يدور ، ومآثرهم يستمد منها النور . . . ووراءهم في الذكر يأتي من اشتهروا بخلق من الاخلاق ، ومن عرفوا في عشيرة بطيب الاعراق ، ومن هنا يظهر لنا ان الشهرة ليست بشيء عند التاريخ اذا لم تؤيد بمآثر ، ولولا هذا لتعب المؤرخون في سرد أسماء كثيرة لا يستطيعون أن يبيضوا وجوه دفاترهم بشيء من أعمال أصحابها ممن كانوا كبارا في العيون لأنهم أبناء أمجاد مثلا ، وهم لم تمجد لهم همة ، ولم تؤثر عنهم منقبة ، ويظهر لنا أيضا ان اعراض التاريخ عن ذكر من لم تبهر الناس مآثرهم ، هو أحسن درس في الاخلاق القاه علينا المؤرخون عن عيبد أو مصادفة ، وذلك لان النفوس انما يغريها بالباقيات الصالحات تذكرا أهلها ومديحهم ، وانما ينفرها من الخمول سرعة انطفاء الخاملين ، وطول اشراق الباقي ذكرهم في العالمين نعم . . ان من لهم الباقيات الصالحات التي يخلدون بها ويدكرون هم أقوى الموجهين للنفوس وانهض بها الى المكرامات ، فحكاية أحوالهم هي أفضل سند للاخلاقيين الذين يجتهدون في أن يفهموا قارئهم كيف يكمل الانسان وكيف يصير من الاقطاب ، أقطاب التاريخ اللهم انى استسقى جودك واحسانك لأرواح المؤرخين

الذين تركوا كنوزا كثيرة لنفوسنا من سير الاقطاب من  
آبائنا ، وأستفرك عن زلة وقع فيها أكثرهم من حيث  
لا يشعرون وهى اهمالهم كثيرا من سير الاقطاب من أمهاتنا  
لقد علمنا ان الفرق ليس بكبير فى الفطرة بين الزجل  
والمرأة ، وليست المرأة بمحرومة من المزايا التى يعلو قدر  
المتحلى بمثلها من الرجال ، ذلك اننا نرى لهن عقولا  
سليمة ، وقلوبا كريمة ، وهمم اعظيمة . وهل للرجال  
ينابيع للمكارم غير هذه العقول والقلوب والهمم ؟ ونرى  
الاديان اعتبرت المرأة كالرجل فى التكليف بالعقيدة والعبادة  
والآداب . ونرى الاجتماع اعتبر المرأة كالرجل فى التكليف  
بالعمل ، وما زال نصيبها منه كبيرا . وهذا غير ما نعلمه  
من فضل بعض الفاضلات السابقات اللاتى تصلح سيرهن  
ان تكون هدى للرجال والنساء ، ولولا تلك الزلة التى  
ذكرناها للمؤرخين لكان اللاتى نعرف سيرهن أكثر .. وما  
اللاتى نعرف سيرهن الآن من الفاضلات بقلائل ..

من هؤلاء سيدة قد سمع بفضلها العالم كله ، ولكن  
العارفين بتفاصيل فضائلها ومزاياها قليلون . الشرق  
سمع بهذه السيدة ، والغرب ، الترك يعظمون اسمها  
والعرب ، وفارس ، والهند ، والافغان ، والسند ، وفى  
ارض الصين تعظم ، وفى الدنيا الجديدة تكرم .. واذا تصفحت  
وثائق المؤرخين - عفا الله عنهم - لا تجد فيها تحت اسم  
هذه السيدة الجليلة الا كلمات يسيرة فى ترجمة حالها ،  
وشرح خلالها ، ولكننا نحن شاكروهم على هذه الكلمات التى  
يملا سناها العقول والقلوب اذا اهتدينا بها - على قلتها -  
الى عظيم أمرها ، كما يدرك المسافرون - عن طريق  
البحر - عظمة المنار اذا كانت أشعته قوية تمتد الى مدى  
بعيد ..

ولقد فكرت أن اكافئ والدتي بعض المكافأة فتبينت بعد طول التفكير أن عظيم فضلها على أعظم من أن يفي به شيء في هذا الوجود .. ولكن تراءى لى أنه يسرها أن أعلن للملأ فضل جنسها وأذكرهم بما نسوه من احترام حقوق هذا الجنس ، ولم أجد طريقة تحقق هذه الغاية الجليلة أفضل من شرح سيرة هذه السيدة التى هى إحدى جداتها

فمن تلك الكلمات القليلة التى تركها لنا المؤرخون فى ترجمة حال هذه السيدة أوّلف هذه القصة الحقيقية والى روح والدتى أرفعها - بخشوع - هدية متواضعة ومن خزائن رحمة الله ورضوانه استنزل تحية طيبة مباركة لهذه الروح البارة

ومن راقه هذا المؤلف الصغير ووجد فيه متعة وفائدة فلى حق أن ارجوه شيئاً ، ولا أرجوه الا أن يكون داعياً لحقوق المرأة ، وكرامتها ، وآدابها .. أن النساء امهاتنا معشر الرجال ، وعلى حسب تربيتهم نكون ، فلنطلب من المجتمع الذى نعيش فيه أن يهذب بالعلم الامهات ويسمى لترقية مداركهن وآدابهن

**عليك الحميد الزهراوى**



## مقدمة الكتاب

قبل ثلاثة عشر قرنا - على الحساب القمري - حدث في الكون حادث عظيم جدا ، لم يحدث مثله الى الآن . . كان له دوى قوى وأثر كبير في آسيا ، وأوربا ، وأفريقيا ، وأعقبه انقلاب عظيم في ممالك الارض وتغير جسيم في أحوال الامم والشعوب ، ذلك الحادث هو قيام العرب بعقيدة جديدة وانضمامهم جميعا الى كلمة النبی الذي قام فيهم منهم ، وهو محمد عليه الصلاة والسلام ، وشروعهم جميعا في غزو الممالك المجاورة ، وفوزهم في هذا الغزو ، وانتصارهم وغلبتهم على الامم ، وانضمام أمم كثيرة الى عقيدتهم ، وتكون ملكهم العظيم من حدود الهند شرقا الى المحيط الاطلسي غربا ، ومن سواحل البحر الاحمر شمالا الى سواحل بحر قزوين جنوبا ، بأسرع ما عرف في التاريخ كله من الفتوحات الكبيرة السريعة

هذا الحادث العظيم لا يسترعى اهتمام بعض الناس . . وكأنه شيء مألوف ، فلا يبحث هؤلاء عن سر حدوثه ولا يريدون أن يستفيدوا من التدبر والتفكير في سر ذلك النجاح العظيم الذي أوتيته أولئك القوم بسرعة جذيرة ان نشبهها بلمح البصر . وبعضهم يتلقاه كما هو أى يفهم أنه حادث من أعظم الاحداث التى حدثت في الدنيا ، ويراه جديرا بالبحث والتأمل وامعان النظر . ولدى التأمل نجد هناك عاملين تم بفضلهما هذا الحادث العظيم ، الاول :

النبي محمد عليه الصلاة والسلام ، والثاني : الذين آمنوا به ونصروه من العرب . وبديهي أن أول مؤمن به هو صاحب الفضل الأول بعد النبي في إقامة هذا الصرح العظيم ومن الأمور التي يحق أن يفخر بها جنس النساء أن هذا الفضل الأول ، أي السبق بالإيمان به وتأنيده ، كان نصيب سيدة من أشرف قومه هي زوجة السيدة خديجة بنت خويلد من قريش . ولما كانت سيرة هذه السيدة الشريفة التي ساهمت في وضع الدعامة الأولى من هذا الحادث العظيم لتخلو بالبداية من فوائد جسيمة ، أزمعت أن أقدم في هذا الكتاب لمحبى الفوائد الأدبية ، والاجتماعية ، والسياسية ، والتاريخية ، أعظم هدية ، مقتطفاً هذه الثمرات من دوحة حياة هذه السيدة الجليلة ، ولكنى رأيت من اللازم جداً قبل دخولي بالقارئ في تفاصيل سيرتها أن أمر به على تاريخ قومها : العرب عامة ، ثم قريش خاصة ، فان تعريفه بهم يساعد على معرفة هذه السيدة الجليلة

### من هم العرب ؟

العرب كسائر الأمم أوائلهم مجهولة ، وأحوالهم منذ عرفوا ، غير معروفة . . نقف الآن عند هاتين الكلمتين ونتأمل قليلاً في مبحث لطيف ، نختصر فيه الكلام ، ثم نعود الى سياق حديثنا . .

يزعم كثير من الأقوام أن أصول أمتهم ترجع الى أبى البشر الأول ، ومن الأقوام من يزعمون أنهم يعرفون سلاسل أصول الأمم كلها حتى يصلوا بها الى ذلك الأصل الأول

ومن التزم التحقيق لا يستطيع أن يجزم بشيء مما يذكر عن تلك الأصول والأوائل . ومن تسامح بتصديق ما يروى

يتشابه عليه الامر فيحار في تصديق المتناقضات ، والترجيح بين المختلفات ، ومهما جنح الحريص على المعرفة الى الاستثناس بما يمكن قبوله من الحكايات في هذا الباب لا يستغنى عن طرح كثير منها مما تقوم الادلة على بطلانه

لماذا حرصت كل الشعوب على معرفة اسلافهم الى اول اصل ؟ .. لا ندرى ، ولكن يلوح لنا أنه لذت للاكثرين دعوى هذه المعرفة ، فابتدع كل قوم أسطورة في بيان أصلهم ينقلها الآباء للابناء ويسطرونها في كتبهم تسطيرا

أما الباحثون عن أنساب الشعوب فلما يئسوا من هذه المعرفة قنعوا بأن تكون لهم معرفة ما بأصول الشعوب التي وجدوها متقاربة في اللغات ، وغيرها من المميزات ، وقد أنسوا من كثرة البحث والاستثناس بالمنقول أن البشر المعروفين اليوم هم من ثلاث سلالات :

١ - السامية

٢ - الآريانية

٣ - التورانية

وظاهر من هذا ، أنهم لما أرادوا وضع أسماء للأصول القليلة التي تفرعت منها هذه الشعوب المعروفة تساهلوا بقبول بعض ما لفق في حكاية البشر مما قبل التاريخ ، ولكن هذا لا يروى في الحقيقة غليل المحققين ولا غليل الخياليين ، فسيظل المحققون صابرين على جهل مثل هذا ، ويبقى الخياليون متمسكين بما قد حكى لهم من قبل ، وربما تسلى محب الحقيقة عن احتجاجها برؤية تمانيلها ، وما تمانيلها الا أساطير الأولين

تمانيلها الا أساطير الأولين

إذا اشتبهنا المعرفة فأماننا مما قد نستطيع معرفته ما تنفذ مراحل أعمارنا من غير أن نقطع في ميدانه شوطا بعيدا ، وما

وما الوصول الى غاية في هذا الميدان مما يجوز أن نطمع فيه ..

فاذا أردنا الآن أن نعرف العرب فعلينا قبل كل شيء أن نريح أنفسنا من التفكير في الاحاطة بحقيقة نسبهم حتى آدم ، أو الى نوح بالتفصيل ، كما لم نعد نطمع في معرفة ذلك في سائر الأمم ، فلهذا لا حاجة بنا الى تكرار ما يذكره علماء الانساب من كون هذا الجيل من الاجيال السامية اذ يقال اني لهم العلم بسام ابي الشعوب السامية وما أغنى من يريد أن يعرف جيلا كالعرب عن الاستعانة بأساطير الاولين

### العرب ثلاث طوائف

يقول المؤرخون ان العرب ثلاث طوائف :

- ١ - بائدة
- ٢ - وعاربة
- ٣ - ومستعربة

أما البائدة فهم العرب الاول الذين ذهب عنا تفاصيل أخبارهم لتقدم عهدهم ، وهم : عاد ، وثمود ، وطسم ، وجديس ، وجرهم الاولى

وأما العرب العاربة ، فهم عرب اليمن من ولد قحطان والعرب المستعربة ، هم : ولد اسماعيل بن ابراهيم

هذا قولهم وهو لا يعجبني لان البائدة ليست موجودة حتى تعد ، وان كانوا يعدونها لان منها اشتق غيرها فهذه شهادة بأنها لم تبد . وقد ذكروا في هذا التقسيم عرب اليمن من ولد قحطان قسما مستقلا ، ولم يذكروا لنا ممن هو قحطان هذا . وذكروا اولاد اسماعيل بن ابراهيم قسما مستقلا ولم يأتوا بدليل قوي على انه تفرع من اسماعيل ذرية مستقلة هم العرب المستعربة . وجل

ما ذكروه أن اسماعيل الذي كان غريبا في جوار مكة المكرمة تزوج بامرأة عربية من تلك القبائل التي كانت حولها ، فهل انقطع نسل تلك القبائل حتى أصبح لا يذكر إذا ذكر العرب ثم تبارك نسل اسماعيل الغريب وحده حتى صار قسما مستقلا هو ثالث ثلاثة أو ثاني اثنين إذا ذكر العرب ؟ . . . لسنا ندري ، ولكننا نعرف أن هذا من جملة الأقوال التي تكسب بكثرة ترديدها - على مر الزمن - صبغة لائزول ، فيتوهم الكثيرون أنها صحيحة ، وهي في الحقيقة ليست كذلك فليت أولى الالباب يكثرون من التعمق في دراسة مثل هذه « الحقائق »

وانما يعجبني جدا في هذا الباب ما روى من أن النبي العربي عليه السلام كان إذا انتسب يقف عند عدنان ولا يتجاوزه ويقول : « كلب النسابون » (١) ويعني بذلك الذين يزعمون معرفة الأنساب إلى آدم أو إلى نوح وأما الذي لا يغير النقد من سطوع جوهره شيئا فهو أن العرب يوم ظهر فيهم النبي الذي أعلى شأنهم كانوا متفرقين في أقطار جزيرة العرب ومنقسمين قبائل كل قبيلة تذكر لنفسها نسبا تقف فيه عند رجل معروف لديها وتمسك عما وراءه . والمشهور أن لقبائل الحجاز أصلا ، ولقبائل اليمن أصلا آخر ، وللقبائل بعد ذلك أصول متفرعة من أحد الأصلين . وعرب العراق والشام ترجع إلى أحد هذين الأصلين أيضا ، فعدنان هو أبو عرب الحجاز غالبا ، وقحطان هو أبو عرب اليمن والعراق والشام غالبا

(١) رواه ابن سعد وابن عساکر، من ابن عباس وثمنته : قال تعالى « وقرونا بين ذلك كثيرا » ولكن ثبت في أحاديث أمح من هذا أنه (ص) من ذرية اسماعيل وخاطب الله تعالى قومه بقوله « ملة أبينا إبراهيم » وكتبه محمد رشيد رضا

وان قال قائل : كيف عرف هذا عن العرب وهم اهل  
 بادية متشتتون متفرقون ، متقاتلون ، متذابحون ، لا ملك  
 لهم جامع ، ولا شرع فيهم وازع ، ولا يد لهم في الاعمال  
 الاجتماعية ، ولا نصيب لهم في الشؤون السياسية ،  
 وليس لهم قبل الاسلام كتاب معروف تدون فيه اخبارهم ،  
 وتذكر فيه مآثرهم وآثارهم ، فمن أجل ذلك لا تجوز الثقة  
 بما ينقل ويحكى عنهم ولسنا نعرفهم الا بالاسلام ،  
 فالاسلام قد جمع الطوائف من اهل هذه اللغة الواحدة على  
 كلمة الغزو ، وهذا لا يثبت ان العرب كانوا يعرفون  
 لقبائلهم أصولا وانهم كانوا يتعارفون بانسابهم ؟

نقول لصاحب هذا القول ان العرب لم يكونوا مجهولين  
 ولا مجهولة اخبارهم ، فاذا قلنا انهم لم يكونوا اهل كتابة  
 وتاريخ فأشعارهم المحفوظة المنقولة هي ديوان سيرهم ،  
 واذا لم نثق بنقل أشعارهم استطعنا أن نعرف العرب من  
 تاريخ الامم المجاورة لهم . فالفرس قد سبروهم لأن من  
 العرب ملوكا كانوا لهم خاضعين ، وقوادا كانوا بأمرهم  
 عاملين . والروم قد خبروهم لان في مملكتهم ملوكا وقوادا  
 وولاة من العرب ، والديانة المجوسية تعرفهم لان منهم من  
 كان على دين ملوك فارس ، والكنائس تعرفت بهم لان  
 منهم نصارى بل قسيسين ورهبانا ، وبيع اليهود ما  
 جهلتهم ، والفلسفة ما أنكرتهم ، والحضارة قد المت  
 بمساكنهم ( في اليمن ، والعراق ، والشام ) ومخالطة الامم  
 أخذوا بقسط منها وأخذت بقسط منهم ، فكيف يكون  
 هذا الجيل مجهولا بعد كل هذا ؟

### الوحدة القومية

ان العرب كانوا معروفين . . ومما عرفوا واشتهروا به  
 الحرص على وحدتهم القومية ، فكانوا أمام الغريب أمة

واحدة ، لها وحدة باللغة والنسب واتصال الديار والعصبية عند التناصر ، فاذا رجعوا الى ما بينهم كانوا قبائل شتى تنتمى كل قبيلة الى أب لها ثم يجمع قبائل كثيرة منهم أب واحد وهكذا ، ولا يستبعد من أمة محتاجة الى التناصر وليس لها كسائر الامم كتاب يجمع أخبارها وسير أبطالها ، أن يعنى كثير من أفرادها بحفظ ذلك في أذهانهم . . وقد كان الرجل من العرب اذا عظم أمره ، أو كثر ماله ، انفرد بأهله وانتمت اليه الذرية ووضعوا لانفسهم نسبة جديدة من غير أن يضيعوا حظهم من الارتباط بالنسبة الأولى لان لهم عند التناصر حظا منها عظيما يذكر أحد العلماء المتخصصين أن العرب كانت قبائلهم أرحاء وجماجم ، فالأرحاء هي القبائل التي أحرزت دورا ومياها لم يكن للعرب مثلها ، ولم ترح من أوطانها ، ودارت في دورها كالأرحاء على أقطابها ، الا أن ينتجع بعضها في البرحاء وعام الجذب ، والجماجم هي القبائل التي يتفرع من كل واحدة منها قبائل اكتفت بأسمائها دون الانتساب اليها فصارت كأنها جسد قائم ، وكل عضو منها مكتف باسم معروف بموضعه

### علم الانساب

وكان علم الانساب من جملة علوم العرب قد أثره عنهم أهل الرواية أول كل شيء . ونقلوا فيه حكايات كثيرة منها ما ذكره عن يزيد بن شيبان بن علقمة بن زرارة بن عدس ، وذلك أنه رأى في منى رجلا على راحلة ومعه عشرة شبان بأيديهم المحاجن ينحون الناس عنه ، ويوسعون له ، فدنا منه ، وقال له : « ممن الرجل ؟ » فقال : « انى رجل من مهرة ممن يسكن الشحر » (١) قال يزيد : « فكرهته

---

(١) بكسر الشين وسكون الراء المهملة ، صقع على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن

ووليت عنه « فناداني من ورائي : « مالك ؟ » قلت :  
 « لست من قومي ولست تعرفني ولا أعرفك » قال :  
 « ان كنت من كرام العرب فسأعرفك » قال يزيد فكررت  
 عليه راحلتى وقلت : « انى من كرام العرب » قال : « فممن  
 أنت ؟ » قلت : « من مصر » قال : « فمن الفرسان أنت  
 أم من الارحاء ؟ » فعلمت انه أراد بالفرسان قيسا  
 وبالارحاء خندفا . فقلت : « بل من الارحاء » قال : « أنت  
 امرؤ من خندف » قلت : « نعم » قال : « من الارومة  
 أنت أم من الجماجم ؟ » فعلمت انه أراد بالارومة خزيمة  
 وبالجماجم بنى اد بن طابخة . قلت « بل من الجماجم »  
 قال « فأنت امرؤ من بنى اد بن طابخة » قلت « أجل »  
 قال « فمن الدواني أنت أم من الصميم ؟ » فعلمت انه  
 أراد بالدواني الرباب ومزينة وبالصميم بنى تميم . قلت  
 « من الصميم » قال « فأنت اذا من بنى تميم ؟ » قلت  
 « أجل » قال « فمن الاكثرين أنت أم من الإقلين أو من  
 اخوانهم الآخرين ؟ » فعلمت انه أراد بالاكثرين ولد زيد  
 وبالاقلين ولد الحارث وباخوانهم الآخرين بنى عمر وبنى  
 تميم . قلت « من الاكثرين » قال « فأنت اذا من ولد زيد؟ »  
 قلت « أجل » قال « فمن البحور أنت ، أم الذرى ، أم من  
 الثماد ؟ » فعلمت انه أراد بالبحور بنى سعد وبالذرى بنى  
 مالك بن حنظلة وبالثماد امرا القيس ابن زيد . قلت : « بل  
 من الذرى » قال « فأنت رجل من بنى مالك بن حنظلة ؟ »  
 قلت « أجل » قال : « فمن السحاب أنت أم من الشهاب أم  
 من اللباب ؟ » فعلمت انه أراد بالسحاب طهية وبالشهاب  
 نهشلا وبالباب بنى عبد الله بن دارم . فقلت له « من  
 اللباب » قال : « فأنت من بنى عبد الله بن دارم ؟ » قلت :  
 « أجل » قال : « فمن البيوت أنت أم من الدوائر ؟ »  
 فعلمت انه أراد بالبيوت ولد زارة وبالدوائر الاحلاف .



قلت : « من البيوت » قال : « فأنت يزيد بن شيبان بن  
علقمة بن زرارة بن عدس ، وقد كان لاييك امرأتان فأيهما  
أملك ؟ »

ولقد أخطأ من ظنوا أن العرب لم تكن لهم حضارة ،  
ولم يكونوا على شيء مما عليه الأمم من الروابط ، فقد  
كانت لهم حضارات ، وملوكهم التابعة في اليمن معروف أمرهم  
عند المستقلين بالتاريخ . وملوك الحيرة ( في العراق )  
مشهورون . . . من عرف تاريخ الفرس عرفهم ، وأن جهل  
تاريخ العرب . أولهم مالك بن فهم بن غنم بن قحطان، وكان  
ملكه في أيام ملوك كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن  
قحطان . وكان ملكه في أيام ملوك الطوائف الفارسيين، وحكم  
بعده أخوه عمرو بن فهم ، ثم تولى الملك بعد عمرو ابن أخيه  
جذيمة الأبرش بن مالك بن فهم ، وجذيمة هذا هو صاحب  
الحديث المشهور مع الزباء ( زنوبيا ) صاحبة تدمر، وخلاصة  
الحديث فيما يروى مؤرخو العرب أن جذيمة قتل أباه  
فاحتالت عليه الزباء واطمعت في نفسها حتى اغتر وتقدم  
إليها فقتلته وأخذت بثأر أبيها . وبعد قتله انتقل الملك  
إلى يد ابن أخته عمرو اللخمى جد الملوك المناذرة اللخمين  
والملوك الفساسنة في الشام مشهورون أيضا ، لا يجهلهم  
من عرف تاريخ الرومان إذا جهل تاريخ العرب . وأصل  
غسان من اليمن من بنى الأزدي بن الفوث ، تفرقوا من اليمن  
بسيل العرم ، ونزلوا على ماء بالشام يقال له غسان  
فنسبوا إليه، وكان قبلهم بالشام عرب يقال لهم الضجاعة  
من سليح (بوزن مليح) فأخرجتهم غسان من ديارهم وقتلوا  
ملوكهم وصاروا موضعهم

### ملوك العرب

وأول من مالك، من غسان جفنة بن عمرو بن ثعلبة، وكان

ابتداء ملكهم قبل الاسلام بأربعمائة سنة ، وقيل أكثر من ذلك ، ولما ملك جفنة وقتل ملوك سليح دانت له قضاة ومن بالشام من الروم ، وبنى بالشام عدة مصانع . ولما مات ملك بعده ابنه عمرو بن جفنة ، وبنى بالشام عدة أديرة منها دير حالى ودير أيوب ودير هند ، ثم ملك بعده ابنه ثعلبة بن عمرو وبنى صرح الغرير فى أطراف حوران مما يلى البلقاء . ثم ملك الحارث بن ثعلبة ، ثم ملك بعده ابنه جبلة بن الحارث وبنى القناطر وأذرح والقسطل ، ثم ملك بعده ابنه الحارث ابن جبلة وكان مسكنه بالبقاء فبنى بها الحفير ومصنعه ، ثم ملك بعده المنذر الأكبر بن الحارث بن جبلة الحارث بن ثعلبة بن عمرو بن جفنة الأول ثم ملك بعده أخوه النعمان ابن الحارث ، ثم ملك بعده أخوه جبلة بن الحارث ، ثم ملك بعدهم أخوهم الإيهم بن الحارث وبنى دير ضخيم ودير النبوة . ثم ملك أخوهم عمرو بن الحارث ، ثم ملك جفنة الأصغر بن المنذر الأكبر ، وهو الذى أحرق الحيرة ، وبذلك سموا ولده آل محرق . ثم ملك بعده أخوه النعمان الأصغر ابن المنذر الأكبر ، ثم ملك النعمان بن عمرو بن المنذر ، وبنى قصر السويداء ولم يكن عمرو أبو النعمان المذكور ملكا ، وفى عمرو المذكور يقول النابغة الذبياني : ١

على لعمرو نعمة بعد نعمة

لوالده ليست بذات عقارب

ثم ملك بعد النعمان المذكور ابنه جبلة بن النعمان ، وهو الذى قابل المنذر اللخمي بن ماء السماء ، ثم ملك بعده النعمان بن الإيهم ابن الحارث ابن ثعلبة ، ثم ملك أخوه الحارث بن الإيهم ، ثم ملك بعده ابنه النعمان ابن الحارث وهو الذى أصلح صهاريج الرصافة ، وكان قد خربها بعض ملوك الحيرة اللخمين ، ثم ملك بعده المنذر بن النعمان ، ثم ملك بعده أخوه عمرو بن النعمان ، ثم ملك أخوهم حاجر

ابن النعمان ، ثم ملك ابنه الحارث بن حجر ، ثم ملك ابنه جبلة بن الحارث ، ثم ملك ابنه الحارث بن حجر ، ثم ملك ابنه النعمان بن الحارث ، ثم ملك بعده الايهم بن جبلة بن الحارث ، وهو صاحب تدمر ، وكان عامله يقال له الفين بن خسر وبني له قصرا بالبرية عظيما ومصانع . ثم ملك بعده أخوه المنذر بن جبلة ثم ملك بعده أخوهما شراحيل بن جبلة ، ثم ملك أخوهم عمرو بن جبلة ، ثم ملك بعده ابن أخيه جبلة بن الحارث بن جبلة ، ثم ملك بعدهم جبلة بن الايهم بن جبلة ، وهو آخر ملوك بني غسان ، وهو الذي أسلم في خلافة عمر ثم عاد الى الروم

ومن ملوك العرب ملوك كندة الذين من سلالتهم امرؤ القيس الشاعر المشهور ، أولهم حجر آكل المرار بن عمرو وخلفه على الملك ابنه عمرو المقصور ، سمي بالمقصور لانه اقتصر على ملك أبيه ثم ملك بعده ابنه الحارث بن عمرو وقوى ملك الحارث المذكور لانه وافق كسرى قباذ بن فيروز على الزندقة والدخول في مذهب مزدك ، فطرد قباذ المنذر بن ماء السماء اللخمي عن ملك الحيرة وملك الحارث المذكور موضعه فعظم شأن الحارث المذكور ، فلما ملك أنوشروان أعاد المنذر وطرد الحارث المذكور فهرب وتبعته تغلب وعدة قبائل فظفروا بأمواله وأربعين نفسا من ذوى قرباه فقتلهم المنذر في ديار بني مرين وهرب الحارث الى ديار كلب وبقي بها حتى مات . ومن أولاد الحارث هذا حجر أبو امرئ القيس الشاعر وكان حجر قد ملكه أبوه على بني أسد ابن خزيمة فبقى أمره متماسكا فيهم مدة بعد ذلك ثم تنكروا عليه فقاتلهم وقهرهم ودخلوا في طاعته ثم هجموا عليه بفتة وقتلوه غيلة ، وفي ذلك يقول ابنه امرؤ القيس أبياتا منها :

بنو أسد قتلوا ربهم      إلا كل شيء سواه جلل  
وطالب امرؤ القيس بهذا الملك بعد أبيه فاستنجد ببكر

وتغلب على بنى أسد فأنجدوه، وهربت منهم بنو أسد وتوابعهم، فلم يظفر بهم، ثم تخاذلت عنه بكر وتغلب وتطلبه المنذر بن ماء السماء فتفرقت جموع امرئ القيس خوفا من المنذر، وخاف امرؤ القيس منه أيضا فصار يدخل على قبائل العرب، وينتقل من أناس إلى أناس حتى قصد السموال ابن عاديا فأكرمه وأنزله وأقام عنده، ثم سار إلى ملك الروم مستنجدا به وأودع أدرعه عند السموعل، وكانت مائة. وإثناء مسيره إلى ملك الروم، قال قصيدة تشعر بلسان خاله ومنها قوله:

تقطع أسباب اللبابة والهوى  
عشية جاوزنا جماة وشيزرا  
بكي صاحبي لما رأى الدرب دونه  
وأيقن أنا لأحقان بقيصرا  
فقلت له لا تبك عينك إنما  
نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

وقد مات في هذا السفر بعد عودته من عند قيصر فبالله كيف تكون مجهولة الأمة التي فيها الملوك والاقبال، وقد وقفت أمام الأمم والأجيال سنين من الدهر، لا يعرف لها حصر. . . لعمرك أن القول بأن هؤلاء القوم كانوا مجهولين، وأنهم كانوا مشتتين، من غير ملك جامع ولا شرع وأزع، هو قول يرسله صاحبه دون أن يتعمق في بحثه أو دراسته ومتى كان العرب معروفين عند غيرهم كما أوضحنا - ولدينا مزيد - كانوا هم أحق بمعرفة أنفسهم وحفظ مفاخرهم وعصبياتهم. وما نقل إلينا عنهم من ذلك ليس منه شيء فوق العقل ولا وراء الحس بل القرائن له شاهدة، وأمثاله أمام أعيننا مشاهدة، وإذا لم تجز الثقة بما ينقل من هذه الأخبار لم يكن غيرها أحق بالثقة لعمر الحق، فإن تزوير الأساطير لا يستبعد وقوعه في كل أمة من الأمم

## وليس الكتب أحق بالصدق من القرائن الشاهدة والادلة الناطقة

فمن شاء الا يثق بمنقول البتة لا يضرنى رايه ولا يضر  
التاريخ والمنقول ولا يضر العلماء الذين يحترمون التاريخ  
كثيرا ، وانما يضره وحده . . اذ يقلل استفادته من المنقول ،  
ويكثر وساوسه وغروره ، ثم يصل الى درجة لا يثق معها  
أحد بما هو منطقي أو معقول

ومن شاء ان يثق بالمنقول عن الامم دون العرب لاناكشه  
لانه شهد لى على نفسه شهادة كافية ، ولا أزيده شيئا على  
ما أوضحت به أن العرب تجوز الثقة ببعض ما ينقل عنهم  
كما تجوز الثقة ببعض ما ينقل عن غيرهم. (١)

من أجل هذا تؤمن بما نقل إلينا من نسب سيدتنا التي  
نروى هنا سيرتها ، وهى خديجة القرشية ، فان هذا النقل  
من النقول التي لا تجد النفس حاجة للتردد في قبولها

وقد قلنا آنفا أن لهؤلاء العرب المعروفين أصليين  
معروفين عندهم ، ومجهول ما وراءهما ، وهما عدنان  
وقحطان ، فأما قحطان فقد أخذت ذريته بحظها من الملك  
لان كل ملوك العرب المشهورين كانوا من ذريته واما  
عدنان فان حظ ذريته تأخر قليلا ، ولكنه كان لعظمه  
متجاوز النسبة أى انه لا نسبة بين حظ القحطانيين  
الذين كان يقوم منهم ملوك ثم ينطفئ مجدهم ، وحظ  
أخوانهم العدنانيين الذين أشرق منهم نور مبين بهر العالمين  
أجمعين . .

---

(١) قد يقال ان الثقة بما كان يرويه النسابون والمفاخرون من  
العرب في عهد بداوتهم أجدر بالثقة من كثير من رواية غيرهم وتدوينه لما  
علم بالقطع من جودة حفظهم ومن نقد بعضهم لبعض بالتسلسل وفي  
المجامع وللحرية التي كانت عندهم ولقلة دواعي الكذب في عهد البداوة  
يطبعها عند كل الامم

لذلك نلم هنا بذكر الذرية العدنانية ذون الذرية  
القحطانية لاننا نريد أن يتعرف القارئ بقوم خديجة  
الخصوصيين . ( فعدنان ) ولد له ( معد ) ومعد ولد له  
( نزار ) وأولاد نزار أربعة : مضر ، وإياد ، وربيعة ، وأنمار ،  
وقد فارق إياد الحجاز وسار بأهله الى أطراف العراق .  
ومن ذريته كعب بن مامة الإيادي المشهور بالجدود وقس  
ابن ساعدة الإيادي المشهور بالفصاحة . ومن ذرية  
ربيعة بن نزار قبائل عنزة وبكر ووائل تغلب ، ومن تغلب  
كليب ملك بنى وائل الذي قتله جسساس فنشبت لقتله  
الحرب بين بنى وائل وبين بنى بكر وبين بنى تغلب . ومن  
بنى بكر بن وائل بنو شيبان ، ومن مشهورهم مرة وابنه  
جساس قاتل كليب وطرفة بن العبد الشاعر ، ومن بنى  
بكر بنو حنيفة . . ومن المشاهير منهم ، مسيلمة الكذاب  
وولد لمضر بن نزار ، الياس وقيس عيلان ، وكثرت  
ذرية قيس هذا فمن ذريته قبائل هوازن ومن هوازن  
بنو سعد بن بكر الذين منهم ( حليلة ) مرضعة النبي  
(ص) ومن ذريته بنو كلاب وقبائل عقيل وبنو عامر  
وصعصعة وخفاجة وبنو هلال وثقيف وبنو نمر وباهلة  
ومازن وغطفان وبنو عبس الذين منهم عنزة المشهور  
وقبائل سليم وبنو ذبيان وبنو فزارة . وكان بين بنى عبس  
وبنى ذبيان حرب داحس التي ظلت أربعين عاما . ومن  
بنى ذبيان النابغة الذبياني الشاعر المشهور  
وولد لالياس بن مضر ( مدركة ) وطابخة ومن ذرية  
طابخة بنو تميم والرباب وبنو ضبة وبنو مزينة  
وولد لمدركة بن الياس ( خزيمة ) وهذيل ، والى هذيل  
هذا تنتسب جميع قبائل الهذليين ومنهم أبو ذؤيب الهذلي  
الشاعر المشهور  
وولد لخزيمة بن مدركة ( كنانة ) واسد والهون وولد

لكنانة ابن خزيمة ( النضر ) وملكان وعبد مناة وعمر و غامر  
ومالك فمن ملكان بنو ملكان ومن بنى عبد مناة بنو غفار  
ومن المشاهير منهم ، أبو ذر ، وبنو بكر . ومن بنى بكر  
هؤلاء الدئل ، ومن المعروفين منهم أبو الاسود الدؤلى ،  
وبنو ليث ، وبنو الحارثة وبنو مدلج وبنو ضمرة

وولد للنضر بن كنانة ( مالك ) ولم يعرف له ولد سواه  
وولد لمالك هذا ( فهر ) وفهر هذا هو الذى سمي قريشا  
ولم يولد لمالك غير فهر وولد لفهر ( غالب ) ومحارب  
والحارث ، فمن محارب بنو محارب ، ومن الحارث  
بنو الخليج وقد اشتهر منهم ، أبو عبيدة بن الجراح ،  
وجميع ذرارى فهر يقال لهم قرشيون

وولد لغالب بن فهر ( لؤى ) وتيم الأدرم ومن تيم المذكور  
بنو الأدرم ومعنى الأدرم ناقص الذقن

وولد للؤى بن غالب ( كعب ) وسعد وخزيمة والحارث  
وعامر وأسماء . ومن ذرية عامر بن كعب ، عمرو بن واذ  
فارس العرب الذى قتله على بن أبى طالب

وولد لكعب بن لؤى : مرة ، وهصيص ، وعدى ، فمن  
هصيص بنو جمح ، وقد عرف منهم أمية بن خلف وأخوه  
أبى بن خلف وكلاهما كانا عدوين عظيمين للنبي ( ص ) ومن  
هصيص أيضا بنو سهم ، ومن عدى بنو عدى ، ومن  
المشهورين منهم عمر بن الخطاب وسعيد بن زيد

وولد لمرة بن كعب ( كلاب ) وتيم ويقظة فمن تيم بنو  
تيم ومن المشاهير منهم أبو بكر الصديق وطلحة ، ومن  
يقظة بنو مخزوم ومن مشهورهم خالد بن الوليد وأبو جهل  
عمر بن هشام

وولد لكلاب بن مرة ، قصي ، وزهرة . ومن ذرية زهرة  
سعد ابن أبى وقاص وآمنة أم النبي ( ص ) وعبد الرحمن

ابن عوف . وقد كان قصى هذا عظيما في قريش ، وهو الذي استعاد مفاتيح الكعبة من بني خزاعة وهو الذي اثل مجدهم وولد لقصى بن كلاب (عبد مناف) وعبد الدار وعبد العزى فمن بني عبد الدار بنوشيبة حجاب الكعبة ومن مشهورهم النضر بن الحارث كان من أشد اعداء النبي (ص) ، ومن عبد العزى أيضا سيدتنا خديجة بنت خويلد التي نروى سيرتها

وولد لعبد مناف بن قصى هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل ، فمن عبد شمس أمية ومثله بنو أمية ، ومنهم عثمان بن عفان ومعاوية بن أبي سفيان مؤسس الملك الاموي ومن المطلب بن عبد مناف المطلبيون ومن ذريتهم الامام الشافعي ومن نوفل النوفليون

وولد لهاشم عبد المطلب ، ولم يعرف له ولد سواه . وولد لعبد المطلب، عبد الله وحزمة والعباس جد الملوك العباسيين (١)

وولد لعبد الله بن عبد المطلب (محمد) النبي عليه الصلاة والسلام



(١) عبارته توهم ان هؤلاء جميع ولده وليس هذا بمراد ، ولكن من الغريب ان ينسب ابا طالب وهو يذكر المشهورين ، ومن أشهر بعد رسول الله (ص) من ابي طالب وولده على المرتضى ، وهو يذكر كلما ذكر سلسلة نسب احد ذريته من السبطين الطاهرين



## الفصل الأول

مآلة قریش الاجتماعیة  
حین البعثة



## موطن خديجة

نشأت خديجة في بلد شأنه عجيب ، قصى عن العمران ، في واد غير ذى زرع ، لاتنسب فيه المياه ، ولا تكتنفه الحدائق ، ولا تقوم للصناعات فيه دولة ، ولا يجد مبتغى الزخارف لديه مجالا ، ولكن الله أبدله جمالا معنويا ، وكساه جلالات روحانيا ، فالأفئدة تهوى اليه ، والمطايا تزجى له من كل فج عميق

هذه البلدة المقصودة هى « مكة » المكرمة الشهيرة التى لايجعل اسمها وشهرتها أحد ، هى أم البلاد العربية واقعة فى القطعة المسماة بالحجاز من شبه جزيرة العرب ، قائمة بيوتها فى سفوح جبال محيطة بها

لم نقف على مقدار عدد سكانها فى تلك الايام التى نشأت فيها خديجة ، ولكن عدد مقاتليها لم يكن يتجاوز الالفين فى الغالب . . فيمكننا أن نقدر أهلها اذ ذاك بنحو خمسة عشر الفا ، كلهم أولاد أب واحد ، قد ورثوا باستعدادهم لا بنسبهم هذا المقام الكريم والبلد الشريف ممن كان قبلهم من القبائل . وذلك أن قصى بن كلاب استطاع أن يجمع جميع ذرارى فهر بن مالك الى مكة ويزاحم بهم من كان فيها من القبائل ، فلم تلبث أن صارت لهم خاصة

وفى مكة هذه بيت مقدس قديم العهد يكاد يكون أول امره مجهولا عند المشتغلين بالتاريخ اسمه بيت الله أو الكعبة ، وكان جميع عرب الحجاز يعظمون هذا البيت أكثر من كل البيوت التى شرفوها ويحجون اليه ،

ويتعارفون ويتعاطفون لديه

كانت هذه البلدة المكرمة ، تضم بين تلك الجبال المهيبة  
أمة عظيمة الاستعداد للرقى متى مهد لها طريقه كما تضم  
الصدفة جوهرة لا يظهر بهاؤها ورواؤها حتى تعالج بعض  
المعالجة وتزال عنها القشور . أما من حيث المباني ، فلم  
تكن كما ينتظر ابن حضارة هذا العصر وإنما كانت  
تضم منازل متواضعة هي بيوت ساذجة مبنية بالحجارة  
واللبن ، ومسقوفة بجذوع النخل خالية من الزخرف

وهذا البلد الأمين باق الى يومنا هذا ، لم يزد على  
طول القرون الا تشريفا وتكريما ، ولم يتغير فيه الا  
اشكال الابنية وازدهار التجارة . . والبيت المكرم لم  
يتغير وضعه ، ولا وضع الشعائر التى حوله ، وإنما بنيت  
هناك زيادات وتحسينات اقتضتها الدواعى

ومكة تعد اليوم (١) من جملة بلاد الدولة العلية  
العثمانية بيد انها لم تحرم حتى الآن من أمير عربى يتصل  
نسبه بسيدتنا خديجة هذه ، ونفوذه فيها وفيما حولها  
نفوذ تام يستمد من السلطان العثماني ومن احترام  
العرب لهذه السلالة

ومن الآثار المشهورة الباقية فى مكة بشر زمزم . . ويقولون  
أن قبيلة جرهم كانت قد ردمتها ثم حفرها عبد المطلب بن  
هاشم جد النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك من مفاخر  
عبد المطلب لانه لم يكن بمكة من ماء الا فى آبار بعيدة من  
البيت المكرم ، فلما حفر عبد المطلب زمزم فى جوار  
البيت انصرف الحجاج اليها . ولحفر زمزم حديث طويل  
خلاصته تدل على شمسف عبد المطلب بتوفير الماء  
للحجاج . . فاذا تأملنا فى حرص القوم على مثل هذه العناية

(١) أى وقت طبع هذا الكتاب ، وهو عام ١٢٢٦ الهجرى الموافق عام  
١٩٠٨ الميلادى

بالغريباء وأبناء السبيل نلمس جانباً من روح تربية الهمم  
وتربية العواطف في ذلك المجتمع الذى نشأت فيه  
« خديجة »

## حكومة جمهورية !

وكان من محاسن أهلها في مجتمعهم ذلك ، أنهم  
كانوا يتبادلون وجهات النظر في الامور العامة فيما بينهم ،  
فكانهم كانوا حكومة جمهورية من غير رئيس لها . . . وكان  
أمر هذه الجمهورية الغريبة الوضع سائرا على منتهى  
النظام ، ولكن لم يكن هذا النظام لسر في ترتيب هذه  
الجمهورية فانها لا يؤمل منها في حد ذاتها أن تؤدي الى نظام  
بالغ منتهى الجودة والقوة وانما ذلك أثر من اثار تربيتهم  
العامة فالأخبار كلها دالة على أن القوم بالجملة كانوا كأنهم  
مقطرون على التضامن التام ، فلذلك كان من مزايا ذلك  
الاجتماع الذى لانهم له نظيرا أن كل فرد من أفراد  
يستمتع بحرية تامة ، ولا يشعر بقهر حاكم ، ولا يخشى  
سطوة جبار ، وكل منهم في أمن من اضياع الحقوق  
واعتماد الحدود . الجنائيات قليلة ، وكرامة  
الناس محفوظة ، والآداب سليمة والحدود غير  
متجاوزة ، والحقوق مصونة ، وذرائع الفساد معدومة ،  
وسلامة الفطرة غالبية ، والمزايا التى بها كمال الانسانية  
راجحة

فاذا أضفنا الى كل ذلك احترام الغريب وتوقيره  
اياهم وتوقيه أذاهم ، نجد أن ذلك المجتمع لا يكاد يوجد  
نظيره ولكن مع كل هذا الجمال والحسن والصلاح في هذا  
المجتمع كان فيه عيوب اذا أزيلت يصبح أول مجتمع  
راق في الدنيا ، وخليقا ان يفيض على جيرانه من بركات  
العقول التى اشربت بديع جماله ، واشربت الى عظيم

كما له ، ثم تأقت الى تعريف العالم بما ازدهر في تلك البقعة التي لم تكن شيئا مذكورا ، من العقول المنيرة والارواح العالية

وقد تم ذلك ، فان الذي منه تنشأ الاسباب واليه ترجع الامور قد أتاح لهذا البلد الجمهورى من ينظفه من تلك العيوب التي اشرنا اليها ، فكان بعد ذلك كما هو المنتظر منه ، أى تم ظهوره ، فصار مصدر نور عظيم بلغ مشارق الارض ومغاربها فأخذ كل قوم منه بقدر استعدادهم

أما الجمهورية التي اشرنا الى انها كانت في هذا البلد فقد أقاموها على أساس يامنون معه من الزلزال ، وذلك انهم رأوا الشرف انتهى الى عشرة رهط من عشرة بطون لاشتهارهم بأعمال مجيدة ، ثم أجمعوا أمرهم على أن يكون النظر في الامور العامة من خصائص هذه البيوت العشرة وتراضوا على أن يكون لكل بيت من هذه العشرة وظيفة يختص بها ، تعد من مفاخره . . فهم بهذا الصنيع قد أخذوا بشيء من أصول حكم الاشراف ، وبذلك أعطوا الاعمال التي يمجدها الفرد أو الاسرة حقها من التكريم والتشريف ، ليزداد نشاط أربابها وحرص غيرهم على التشبه بهم ، وأخذوا أيضا بشيء من أصول الحكم النيابى وهو أعظم دليل على وجود التضامن الذى هو أحد الاركان التي تحقق سعادة الامم

### نظام الشورى

أما الشورى فقد وفروا منهم حظها ، وعظموا في أنفسهم حقها ، بما كانوا يشرعون من الاحكام والحدود ، ويفصلون في بعض القضايا والحقوق وقد الفوا الرئاسة العامة من بينهم كأنهم عدوها لغوا

إذا صدقوا في تضامنهم وصلحوا في تشاورهم وارانادتهم الحق ، وقليلة الجدوى إذا مرض تضامنهم ووهى نظامهم . أو أنهم خشوا أن يكون حب الرئاسة - إذا وجدت - مدعاة لكثرة تنازعهم وتنافسهم فلا يأمنون بعد ذلك كثرة الفشل والشقاق وسقوط الهيبة من نفوس الغرباء ووقوع الفتور في نفوس الاقربين . أو أنهم أنفوا أن يملكوا عليهم أحدا لانهم كلهم يحملون بين اضالهم نفوس الملوك ، وجمهوريتهم هذه لم يكن لها رئيس عام ولكن كانوا يقيمون واحدا في وظيفة رئيس عام مؤقتا

أهل هذا المجتمع اللطيف لم يكونوا ذوى شغف بالمحاربات فعلاقتهم الخارجية مع جيرانهم من القبائل وأهل القرى والبلاد كانت حسنة . ولكن هذا لم يقدّمهم عن أن يكون استعدادهم تاما لما ينزل بهم ، فان نزل بهم ما يطبقونه كشفوا عن قوتهم وتجلت بطولتهم من غير تريث ، وان نزل بهم مالا قبل لهم به تريثا وعمدوا الى الاناة ، وفتقوا من الخيطة أبوابا يخرجون منها الى السعة من الضيق ، ومن قل الجيوش بالحسام الى قلها بالبيان ، وقد وهبوا من ذلك حظا عظيما

ومن أهم الاحداث الخارجية التي ضاقوا بها ذرعا هجوم القائد الحبشى «أبرهة» الذي كان قد استولى على بعض بلاد اليمن، فقد دهمهم بجيش عظيم لم يروا لانفسهم طاقة به فقابله عبد المطلب جد النبى صلى الله عليه وسلم وكان يومئذ رئيس قريش فأحسن مقابلته ولطف بعض الشيء من حديثه التى كان بها مسوقا لهمد « بيت الله » على زعمه لاسباب فصلها رواة الاخبار ، ثم أصابته كارثة، فاسرع بجيشه متقهقرا ،لانه رأى فى أهل هذا البلد مالم يكن يخطر له على بال . .

لقد رأى فى غزوه هذا لهؤلاء القوم عجبا من الامر ،

وذلك أنه لما أتاهم أرسل اليهم رجلا حميريا كان معه اسمه حنطة وأوصاه أن يسأل عن سيد أهل هذا البلد وشريفها فيبلغه أن الملك لا يريد الحرب وإنما جاء لهدم هذا البيت ، فلما دخل حنطة مكة سال عن سيد قريش وشريفها فدلوه على عبد المطلب بن هاشم فجاءه وبلغه ما أمره به أبرهة فكان جواب عبد المطلب أننا لا نريد حربه ، قال حنطة أنه أوصاني بأنه يريد مواجهتك أن لم تريدوا الحرب، فانطلق عبد المطلب مع حنطة اليه، فلما رآه أبرهة رأى العمامة والجلال فأعظمه وأكرمه وأخذه الى جانبته ، وقال للترجمان: سله أن يقول ما يبدو له، فلم يكن من عبد المطلب الا أنه صرف لسانه عن الخوض في عزم القائد على هدم البيت وجداله فيه ، بل أظهر الاقتناع بضرورة المسألة وعدم معارضة القائد في أمر هذا المعبد وقال له اذا لم يكن لك غير هذا الأرب فرد علينا ابلنا . قال أبرهة للترجمان قل له قد كنت أعجبتني حين رأيتك ثم زهدت فيك حين كلمتني . . اتكلمنى فى الاموال وتترك بيتا هو رمز دينك ودين آبائك ؟ فاجابه عبدالمطلب اننا نحن العرب ارباب المال وأما البيت فله رب هو سيحيمه . فقال له انه ما كان ليمتنع منى ، فأجابه أنت وذاك ، ورد أبرهة الابل على عبد المطلب وبقي مصرا على عزمه . . ورجع عبد المطلب الى قريش ، فأمرهم أن يعتصموا بالجبال ، ولا يأتوا أمرا حتى يروا ماذا يكون ، وقد أتى من لدن العناية الالهية مالم يكن فى الحساب . . فان أبرهة لما أصبح وتهيا لدخول مكة ، برك الفيل الذى كان يركبه وحرن وأتوا كل باب من ابواب الحيل ليقوم ويمشى تلقاء مكة فلم يقم ، ثم رأوا حجارة تسقط عليهم من أرجل صنم من الطير فتشاءم أبرهة وتذكر ما أنذره به ذلك الجليل السنن الطلعة ( عبد المطلب ) من حماية هذا البيت



بطريقة لا يبلغها عقله فخدمت في صدره جذوة الحسنة  
والتهور وخذل أمام هؤلاء القوم الذين حاربوه بالسلم ،  
ورموا عقله بسهم نافذ من بيان عبد المطلب مع رمى  
الطير جيشه بحجارة من سجيل

وهذه أكبر حوادثهم الخارجية وأشهرها . وفي عام  
هذه الحادثة ولد النبي (ص) وقد سموه عام الفيل لما  
ذكرنا من قصته . ورجال هذه الحملة قد عرفوا بعدها  
باسم أصحاب الفيل ، وقد أشار إلى مجمل هذه الحادثة  
في القرآن المجيد





## الفصل الثاني

### بيوتات قريش



## البيوت العشرة

اما بيوت الشرف العشرة في قریش فهي :  
هاشم ، وأمیه ، ونوفل ، وعبد الدار ، وأسد ،  
وثیم ، ومخزوم ، وعدی ، وجمح ، وسهم

وأما الامور التي كان توليها من خصائص هؤلاء فهي :  
السقاية ، والعمارة ، والعقاب ، والرفادة ، والحجابه ،  
والسدانة ، والندوة ، والمشورة ، والاشناق ، والقبه ،  
والاعنة ، والسفارة ، والإيسار ، والاموال المحجرة

هذه الاسماء أكثرها اصطلاحی يحتاج الى تفسير  
يوافق العصر الذي نحن فيه حتى نفهم حقيقة ذلك المجتمع  
الذي سميناه جمهوريا على حسب اصطلاح عصرنا

فأما السقاية فقد تفهم من اللفظ نفسه أى سقاية  
الحجاج الذين كانوا يأتون « بيت الله » من كل جانب  
ولا يخفى على أحد ان العناية بهؤلاء الفرياء وتوزيع المياه  
عليهم من اهم الامور العامة في ذلك الظرف ، وكان بنو  
هاشم هم أهل هذه الوظيفة

واما العمارة فهي منع من يتكلم في « بيت الله » بكلام  
سفيه قبيح أو يرفع فيه صوته ، وكانت هذه الوظيفة  
أيضا في بنى هاشم الذين منهم العباس صاحبها

واما العقاب فهي راية قریش كان من شأنهم فيها انهم  
يحفظونها في بيت من البيوت العشرة فاذا وقعت حرب  
أخرجوها فان اتفقوا على أحد منهم أعطوه راية العقاب  
وان لم يجتمعوا على أحد رأسوا صاحبها فقدموه وقد

كانت هذه الوظيفة أى حفظ هذه الراية من خصائص بنى  
امية الذين منهم أبو سفيان صاحبها

وأما الرقادة فمعناها الاسعاف ، وكانوا يجمعون من  
انفسهم أموالا لرفد المنقطعين من الحجاج وكانت الرقادة  
فى بنى نوفل الذين منهم الحارث بن عامر صاحبها

وأما السدانة والحجابة فمعناها خدمة « بيت الله »  
وحفظ مفتاحه ، والظاهر من هذه الوظيفة أنها دينية ،  
ولكن متولى هذه الوظيفة الدينية مشترك مع عشيرته  
بتدبير الشؤون الاجتماعية . وهذا العمل الذى نفسه  
قد كان عند القوم من أهم الامور العامة فى مدينتهم  
وجمهوريتهم

وقد نستطيع أن نشبهها من بعض الوجوه بوظائف  
كبار رؤساء الدين فى الامم المتمدنة اليوم ولا يخفى أن  
وظائفهم من متممات مدينتهم ، ولمن يتولونها شأن يذكر  
عندهم . . وقد كانت الحجابة والسدانة فى بنى عبدالدار  
الذين منهم عثمان بن طلحة صاحبها

وأما الندوة فمعناها ظاهر من اللفظ نفسه وكانت دار  
الندوة فى بنى عبد الدار أيضا

وأما المشورة فيريدون بها رئاسة الشورى وليس  
ببعيد عن الصواب اذا شبهناها من بعض الوجوه برئاسة  
الوزراء أو رئاسة مجلس الاعيان وكانت هذه الوظيفة من  
خصائص بنى أسد وكان يتولاها منهم يزيد بن زعنة  
ابن الاسود . وكان من شأنهم فى هذه الوظيفة أن رؤساء  
قريش كانوا لا يجتمعون على أمر حتى يعرضوه على  
صاحب هذه الوظيفة فان أعجبه وافقهم عليه والا تخير  
وكانوا له اعوانا

وأما الاشناق فهى الديانات والمفارم فقد كانا

يساعدون من يستحق المساعدة ممن حمل مغرماً أو دية  
وكان النهوض مع صاحب المغموم لجمع المطلوب من خصائص  
بنى تيم الذين منهم أبو بكر الصديق ، فكان أبو بكر إذا  
نهض مع أحد، صدقه قريش، وأعانوا من نهض معه ، وان  
نهض غيره خذله

وأما القبة فاشبه شيء بنظارة الحرية ولكن كانوا  
يعمدون إليها وقت الحرب فقط ولعل ذلك لسداجة  
الحرب اذ ذاك أو لاستعدادهم لها كل وقت اذا تأججت  
نيرانها ، وقد كانوا يضربون قبة فيجمعون اليها ما يجهزون  
به الجيش وكان ذلك من خصائص بنى مخزوم الذين  
منهم خالد بن الوليد صاحبها

وأما الائنة فمعناها رئاسة الخيالة وكانت هذه الوظيفة  
للمخزومي أيضاً وخالد صاحب هذه الوظيفة هو ذلك  
الفتاح العظيم القائد العام في الاسلام لجيوش أبي بكر  
خليفة النبي عليه الصلاة والسلام ، وما أظن تاريخ فن  
التعبئة اليوم يخلو من الاستئناس بذكر تلك التدابير  
المخزومية التي كان لها شأن عظيم في الاسلام كما هو  
شأنها في الجاهلية ( أو الجمهورية )

وأما السفارة فالمراد بها ظاهر ، وقد كانوا يحتاجون  
الى السفارة في الحروب أى في أوائلها أو بعد شوب نارها  
وتعاضم أوزارها ويحتاجون اليها اذا نافرهم احد للمفاخرة .  
وقد كانت هذه الوظيفة من خصائص بنى عدى الذين منهم  
عمر بن الخطاب صاحبها ، وناهيك بذلك الخليفة الثاني  
الشهير بكل منقبة صالحة اذا كان سفير قوم

أما الاسار فهي الازلام والقдах كانوا يضربون بها اذا  
ارادوا أمراً ، وكان هذا من خرافاتهم وعبوبهم . ويحق لنا ان  
نبالغ في استهجان هذه الخرافة التي كانوا عليها الا ان  
يكون لهم شيء من النظر من وراء الخرافة كما هو الحال

لدى كثير من الامور الباطلة التى تروج فى ايام بسماع من  
المعتلأ او بترويج منهم لها ، وقد كانت هذه الوظيفة لبنى  
جمع الذين منهم صفوان بن امية صاحبها

واما الاموال المحجرة فهى الاموال التى سموها لآلهتهم  
ويصح ان تسمى هذه الاموال ام الاوقاف الخيرية اى ان  
بينهما تشابها . وقد كانت هذه الوظيفة اى تولى النظر  
فى الاموال المحجرة من خصائص بنى سهم الذين منهم  
الحارث بن قيس صاحبها

هذا ما كان من حيث ترتيب التضامن واقتسام الاعمال  
المهمة . واما الامور الجزئية التى كان الافراد يختلفون  
فيها فتفصل فيها كبار اسرهم وعشائريهم فى الغالب على  
طريقة التحكيم ، ولم يكن للقوم من شريعة مكتوبة وانما  
كانوا يقضون فى الامر كما يبدو لهم الصواب فيه ويقيسون  
الامور باشباهها

وهنا يخطر فى بال القارئ ان يسأل عن الضعيف  
الذى لا يأتى الى ركن شديد من رهطه كيف كان حاله  
اذا ادين او ظلم فى ذلك المجتمع الذى لا شريعة فيه  
مكتوبة ولا قوة عمومية من شأنها وخصائصها دفع القوى  
عن الضعيف ؟ وقد بحثنا فى هذه المسألة المهمة فوجدنا  
القوم لم ينسوها ولم يهملوا شأنها وذلك انهم قرروا فى  
مؤتمر لهم حماية الضعيف والدود عنه ، وكان من حديث  
ذلك المؤتمر ان قبائل من قريش اجتمعت فى دار عبد الله  
ابن جدعان الشهير ، وتعاهدوا وتعاقدوا على الا يجدوا  
فى مكة مظلوما من اهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر  
الناس الا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه  
مظلمته ، فسمت قريش ذلك حلف الفضول وكانت  
الارهاط المتعاقدة بنى هاشم وبنى المطلب وبنى اسد  
ابن عبد العزى ، وبنى زهرة بن كلاب ، وبنى تيم بن مرة



نعم كان من النقص في نظامهم ذلك ألا تكون خمسية الضعيف من خصائص الجمهور ، ولكن يظهر انهم كانوا يكتفون في الضعيف بأن يجيره واحد من بيوت العزة والقرة فانه يصير مثل مجيره في نظر الجمهور فلا يجسر احد أن يظلمه ..

ويمكننا أن نستخلص من كل ماتقدم ، ان القوم كان لهم شبه قانون اساسي الا انه غير مكتوب ولم يكن لهم قوانين مدنية او جنائية قط .. ودور الامور المدنية يسير في المجتمعات البسيطة الصغيرة فكل انسان يستطيع فيها أن يحتفظ بحقوقه أو يستعين عليها بالتحكيم وبما أشبهه . وأما الحوادث الجنائية فلا يجوز اهمالها وتركها من غير ان يتولى الفصل فيها اناس تسندهم قوة تنفيذية ، مخافة ان تكثر الجنايات ولكن تكافؤ القوى في العشائر والبطون الساكنين في بلد واحد ، قد يكون مانعا من كثرة الجنايات . واذا اضيف الى ذلك صلاح الاخلاق والتربية العمومية كان هذا نعم الظهير على تقليل العدوان . وقد كان القوم يتواصون باجتناب الظلم ، ولا سيما في البلد الامين ، ومن وصاياهم في ذلك قول احدي نسايتهم توصي ابنا لها :

|                   |                        |
|-------------------|------------------------|
| أبنى لا تظلم بمك  | ة لا الصغير ولا الكبير |
| واحفظ محارمها بنى | ولا يغرنك الغرور       |
| أبنى من يظلم بمك  | ة يلق أطراف الشرور     |
| أبنى يضرب وجهه    | ويلج بخديه السعير      |
| أبنى قد جربتها    | فوجدت ظالمها يبور      |
| الله آمنها وما    | بثيت بعمرستها قصور     |
| والله آمن طيرها   | والعصم تأمن في ثبير    |

وتواصيهم باللهي عن الظلم يفرينا بتعرف فلسفة القوم التي كانت تحفزهم الى ذلك



## الفصل الثالث

# ريانة أهل مكة حين البعثة



## دينهم قبل الاسلام

يبدو لنا ان العرب طرخوا - كسائر الامم - باب الضالة المنشودة ، وهى معرفة ما هى نفوسنا ، ومن أين مبدؤها ، والى أين منتهىها وماذا يزكياها وما الى ذلك . .

نعم . . طرخوا هذا الباب ، ولكن لم يفتح لهم الطريق الموصل الى هذه الحقائق المكنونة بل كان نصيبهم كنصيب الاكثرين ظنونا ورجما بالغيب

ادرك القوم ان للعالم خالقا ومدبرا هو الذى خلق السموات والارض وما فيها . . وهو الذى خلق السمع والابصار والافئدة ، وقالوا كما يقول سواهم انه تستحب الرغبة اليه والرهبة منه ، ولكن فى هذه السبيل تاهوا فتركوا ههنا العقل والتفكير وقلدوا الامم واتخذوا من الحجارة اوثانا وقالوا ان تعظيم هذه الاوثان يقرب الى الله لان هذه الاوثان تماثيل او كتماثيل لاناس صالحين محبوبين عند الله فتعظيمهم الى درجة العبادة يقرب الى الله . .

لقد اخطاوا فى ظنهم ان الله يحب هذه الحجارة . . واخطاوا بزعمهم ان تنزيل العقول الى تعظيم هذا الجماد ( بهذه الصورة ) تعظيما قلبيا يرضى الله تعالى . وحادوا عن الحق بتخليهم ان هؤلاء يشفعون لهم عند الله تعالى وقد كان الواجب الا يكون فى قلوبهم حب وتقديس الا للحى القيوم ولم يكن جائزا ان يشركوا به الجماد وكانت لهم اخطاء اخرى كثيرة فى ذات الله سبحانه

وصفاته وافعاله فقد زعم بعضهم ان الملائكة بناته ، وزعم بعضهم ان الجن شركاؤه في الملك ، وظنوا جميعهم ان ان يبعث الله بشرا ليعلمهم ويزكيهم

أخطأوا في كل ذلك ، وتسفلت فيه عقولهم ، ولكن اعتقادهم بأن للعالم صناعا مدبرا عظيما هو رب الكل وانه يجب ان يتقرب اليه العبيد قد رقق - على ما فيه من النقص والبعد عن الطريق القويم - قلوب كثير منهم ، وكأنه اعداها لقبول حق سيظهر ثوره فيمحق عقائدهم الخاطئة

### المعاد والجزاء

والمشهور ان القوم لم يكونوا يقولون بالمعاد والجزاء في الآخرة ، ولكن الحقيقة انهم كانوا في ريب وشك، اى لم يكونوا جازمين بشيء في هذا الباب ، وكان أناس منهم تذهب بهم عقولهم الى وجوب المعاد والجزاء في الآخرة ، ولكن عدم اعتقادهم بالجزاء والعقاب ، لم يكن مانعا من ان تكون قلوبهم محبة للاخلاق الكريمة والاعمال الطيبة التي تحث علي مثلها الديانات من البر والاحسان والعدل والصدق والكرم وحماية الضعيف وترك العدوان والابتعاد عن الخيانة والبغى وما اليها في الفضائل المعروفة وعقولهم استسأغت تعظيم الجماد لان الوثنية كانت الغالبة في عصرهم ، ولا يبعد عن الصواب من يقول ان الوثنية هي الغالبة على طباع البشر كلهم ، باستثناء عدد قليل

فاذا صرفنا النظر عن تلوث عقولهم بنزعات الوثنية ، لا نجد من بعدها هذه العقول مظلمة وهي التي اضاءت لهم فعرفوا بها الاخلاق الصالحة والفاسدة ، ولم يكن يعوزهم الا ان يقوم فيهم مرشد يهديهم للتي هي اقوم من طرائق الاعتقاد بالله وصفاته والتقرب اليه بتوجيه

الوجه واسلام القلب اليه ، ولولا أن للقوم عقولا صافية لما كان يرجى لحيى المرشد من فائدة لانه لا يظهر نور الارشاد الا فى اللوح النقى ، وقد كان الرجاء بالقوم فى محله ، فانه لما جاء المرشد لقى تربة صالحة مهيأة لانبات ما اراد أن يلقى فيها ، والى جانبها أخرى فيها من أعشاب التمسك بالقديم ما يحتاج الى زمن فى معالجة ازالته وقليل من الاراضى كانت سبخة ليس فى الامكان أن ينتج فيها البدار

لا يهولنك من القوم سداحة عقولهم ، فيما كانوا يعتقدون ، فان البشر كلهم الا قليلا كانوا ولا يزالون يعتقدون أمثال معتقدات القوم . ومن المؤسف أن هذا العيب عام وراسخ فى البشر ، ومن أصعب الاشياء استئصال جذوره . ولا ندرى السر فى هذا . ولكن انظر الى هذه الجماعة القايلة كيف أقامت لها شأنًا رفيعًا فى العرب كلهم اذ غلبتهم على التوطن فى جوار البيت المكرم ، وأحسنن المقام فى هذا الجوار الشريف فقامت بحقوق حجاجه من سقائهم ورفادتهم ، وقامت بحقوق المستضعفين فيه من حمايتهم وتأمينهم ، وقامت بسنن التضامن والتعاون والتواصى بالعدل والاحسان حتى رضى العرب بتقديمهم عليهم اذا تقدموا واياهم لامر عظيم وشرف جسيم ، على أنهم ليسوا فى العرب أكثر عددا ، ولا أقوى ناصرا . . ولا عجب ، فقد خصهم الله بافراد كانوا فى نقاء القلوب آية ، وبلغوا فى صفاء العقول الغاية ، والامم والشعوب تحيا بأفراد وتموت بأفراد

واذا سخر الاله سعيدا لانا س فانهم سعداء  
ومما هو جدير بالذكر فى هذا الصدد ما كانوا يستمتعون  
به من حرية ، فانهم لما خلصوا من تملك أحد عليهم خلصوا

من شرور كثيرة تتبع التملك فكانت معاشرائهم ساذجة خالية من عبارات الملق والخنوع ، وكانت مكاسبهم لانفسهم لإبشاركم فيها احد ، ولا يعرفون المقام المرتبة والاتوات المضروبة

وهم في أمن من حيف القضاء لانهم يتقاضون يوم يشاءون الى من يرضونه من كبرائهم ولا قانون لهم في المسائل الجزئية ترتعد من احكامه فرائصهم وانما يخشون باس بعضهم البعض ، فيرتدعون عن الشر الذي يثار له العموم أو يثار له من اصابهم خاصة

### حرية التدين

وكان جائزا لاحدهم ان يتدين كما يريد بشرط الا يعيب دينهم الذي كانوا عليه ولا يدعو الى ابطاله ، وقد كان لبعضهم فلسفة في البعث والجزاء في العالم الآخر ولبعضهم رأى في الانصراف عن عبادة الاوثان ، ولبعضهم ميل الى تقليد أهل الكتاب ، فلم يكونوا يحاسبون احدا على مثل هذا

ولم يكن لديهم نوع من المبيعات خراما بل يبيعون ويشترون كما يشاءون وكل منهم عارف بمصلحته ولهم همة في التجارة، والرحلة فيها الى الشام وغيرها في الصيف والشتاء

اما اهل الصنعة فيهم، فلم يكن لهم من قيمة، والغالب ان يكون الصناع غرباء

ولهم ازاء حسنة الحرية سيئة كبيرة وهى امتهان الرقيق واحتقاره وتكليفه الشاق من الامور ولم يكن بعضهم يأنف من اكراه امائه على البغاء لياخذ مايعطين في سبيله



وأما نساؤهم الحرائر فلم يكن جائزا لهن الزنا ولا شيئا  
إذا كان لهن بعولة ، بيد أنه لم ينقل لنا أنهم رتبوا على  
الزانيات عقابا ، بل كان عقابهن متروكا لرأى أهلهم إذا شاءوا  
وكان لنسائهم كثير من الحقوق ولهن أن يواجهن  
الرجال ويبرزن أمامهم حاسرات ، ويمكن أن يقال بالأجمال  
أن حرية الرجال والنساء كانت تامة ، ولذلك نعجب من  
قوم هذا شأنهم إذا رأيناهم لم يرثوا لحال الرقيق ولم  
يذكروا الله يستحق الرحمة لأنه سلب أفضل نعمة وهبها  
لهم ربهم الأعلى ، الذي خلق فسوى





## الفصل الرابع

مقام المرأة عند قوم غديجة



## حمقى الفقراء يُبدون البنات

لم يكن مقام المرأة - بين قوم خديجة - مقاما مهينا ، بل كان لها لديهم مقام كريم . وجل ما عرف عنهم من انحطاط مقام المرأة انهم كانوا يكرهون البنات وانهم كانوا يُبدونهن أى يدفنونهن فى التراب ، وهن على قيد الحياة ( ١٦ : ٥٨ ) « واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ( ٥٦ ) يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، ايمسكه على هون أم يدسه فى التراب الا ساء ما يحكمون »

هذا ما عرف عنهم ، ومن أخذ هذا الامر على ظاهره واطلاقه يستخف بهؤلاء القوم لان انحطاط قيمة المرأة ومقامها عندهم دليل على انحطاطهم ، ولكن أخذ الامر على ظاهره واطلاقه ليس من شأن الذين يحبون معرفة الحقائق

ان كل بلد فيها الفقراء وذوو اليسار ، وفيها الحمقى وأولو الالباب ، وفيها القساة وأهل الرحمة . فليس من المنطق ولا العدل أن نتخذ من سلوك بعض الحمقى أو القساة أو الفقراء فى بلد مثالا ومראה لسلوك مجموع أهل البلد

كان فى مكة فقراء وحمقى وقساة ، كما هو الحال فى سائر البلاد . . وكان اناس قليلون من هؤلاء ، ياتون هذا العمل الفظيع ، يعنى الواد (دفن البنات وهن أحياء فى مرحلة الطفولة ) فلا ينبغى أن يقال بدون تخفط أن القوم

الذين نشأت منهم سيدتنا هذه كانوا يئدون البنات .  
ان قوما نبغت فيهم مثل هذه السيدة لا يعقل أن يكونوا  
قتلة بنات ، كلا انهم لم يكونوا يقتلون الأجساد ، ولم  
يكونوا يقتلون منهن العقول والارادات ، واذا كان قد قتل  
البعض منهن ، فذلك عمل نفر يكادون لا يذكرون من  
فقرائهم أو حمقاهم أو قسائهم

ولم يكن الذين يئدون بناتهم يأتون هذا العمل الفظيع  
حقدا على هذه النسبات البريئة ، أو احتقارا لجنس المرأة  
كما يلوح لأول وهلة بل كان يسوقهم الى ذلك فساد في  
الخيال وضعف عظيم في الطبيعة . وان الخيال الفاسد  
ليزين المنكر حتى يظنه صاحبه من المعروف كما تلمس  
أحيانا كثيرة

كان منهم فقراء يزبن لهم خيالهم الفاسد أن فتياتهم  
إذا ظلن أحياء ربما نالهن ضيم من فقرهم ، وربما  
عجزوا عن أن يكرمهن بنفقة تساوين بأتراهن ، من  
ذوى قرباهن أو جوارهن ، فيرون مواراتهن في التراب ،  
خيرا لهن من بقائهن دون الاتراب

لا تكرران للحق أن هذا الخيال باطل ولا سيما عند  
المؤمنين ولكن هذا الخيال الباطل لم يوح الى صاحبه أن  
الفتاة شجرة خبيثة يجب اجتثاثها قبل النمو ويستحسن  
حرمان الوجود من ثمراتها وانما زين له سوء عمله هذا  
من طريق أخرى هي كرامة فتاته

يتخيل ذلك المسكين أن فتاته ان عاشت تعيش مثله في  
آلام تذيب الفؤاد ، ولو قد من الجلود ، ومنغصات تسود  
الوجوه البيض وتبيض الشعور السود ، فيزين له خياله  
أن يحمي كريمته ، فلذة كبده ، من مثل هذه الحياة التي بلاها  
فاكتوى بنارها ، وأن يتقى بألم ساعة عند توديعها  
ومواراتها التراب آلام سنين يراها فيها بأاسة شقية

مخرومة من متع الحياة ، كما يتقى أحدهم بألم الكى الآلم  
سقم مزمن

وكان منهم حمقى توسوس لهم شياطين الخواطر بأن  
الفتاة ربما وقعت فى يد من لا يرعى له ولها حرمة . ولو  
قضى على كل البشر بمثل هذه الوسوس لآذنت الدنيا  
بالانقضاء ، ولكن الخالق لم يشأ الا أن تكون الدنيا على  
هذا النمط من الاستمرار ، لذلك لم يدع لهذه الوسوس  
سلطانا على قلوب البشر الا قليلا ممن بلغنا شئ عنهم من  
هذا القبيل

ساء ما يزين لهؤلاء الفقراء والحمقى الذين كبر نصيبهم  
من القسوة مع نصيبهم من الفقر والحمق ، فلو علم المعدم  
ان اليسار ليس محتكرا فى بيوت أو أسر أو أشخاص  
معينة ، وانما يتاح للعاملين المحسنين مع الظروف  
المناسبة ، وان قيمة كل امرئ ما يحسنه ، وان ليس  
عليه الا أن يعمل بالمعروف عند قومه ويصبر قليلا حتى  
يتاح له ما يقوم به شأنه ، لما سهل عليه أن يقصف يديه  
غصنا منه أنبتة الله ولا لذة أكبر من تربيته وتنميته

ولو علم الاحمق أن الفرار من توهم العدو نهاية الجبن  
وغاية الخذلان ويثمر اقصى درجات الخسران لراى أنه  
جدير بالبكاء على حظه من ضعف النفس

\*\*\*

وهيهات أن يكون قوم « خديجة » على هذا النمط من  
ضعف النفوس وهم المعروفون بالشجاعة والاقدام . وأى  
قوم تطيب لهم الحياة اذا كانوا لا يرون سلامة حرمهم الا  
بافئائها ؟ وانى يجد الشخص الطمانينة اذا كان دأبه  
الهرب ، من غير حاجة أو طلب ؟

اما انهم كانوا يكرهون البنات اذا بشر أحدهم بهن فلا  
يستطيع أحد انكاره ، لان القرآن المجيد هو الذى سجل

هذه الحقيقة التاريخية وقد سرى هذا الى نفوسهم من شدة احتياجهم الى البنين الذين سيكونون المدافعين في ذلك المجتمع القسائم بنفسه قياس المجتمعات الكبيرة . وليس معناه ان البنت تظل طول حياتها مكروهة ، وان النساء لا قيمة لهن ولا كرامة عند أولئك القوم . وما ذنب القوم اذا كان نفر من افقرائهم وحقماهم قد ضعفت نفوسهم فاستسلموا الى الراحة والخنوع ، مما بلذ للكرام التعب فيه ؟ وما اجرامهم الى الانسانية من بعد ان يقوم امجادهم بافتداء كثير من الفتيات اللاتي تصدى آباؤهن لوادهن من الفقر ؟

### حقوق المرأة

ان العرب كافة ، وقريشا خاصة ، كانوا يكرمون المرأة ولا يهينونها ، وقد أعطوا النساء كل ما لهن من الحقوق في نظر العدل ، ولم ينسوا ان المرأة - كالرجل - مخلوق يحمل عقلا له ادراك ، وان لهذا الانسان المؤنث نفسا كنفس ذلك الانسان الذكر تغضب وترضى وتنعم وتشقى فأعطوا عقلها ونفسها حقيهما

وقد روى لنا أن هنذا بنت عتبة واهى من قوم سيدتنا « خديجة » جاءها ابوها يشاورها في رجلين من قومها رغبا في الزواج بها ، فقالت : صفهما لي ، فقال : « اما أحدهما ففي ثروة وسعة من العيش ان تابعته تابعك ، وان ملت عنه حظ اليك ، تحكمين عليه في أهله وماله ، واما الآخر فموسع عليه ، منظور اليه ، في الحساب الحبيب ، والرأي الاربب ، مدره أرومته ، وعن عشيرته ، شديد الغيرة ، لا ينام على ضعة ، ولا يرفع عصاه عن أهله » (\*) فقالت « يا أبت الاول سيد مضياع للحررة فما عست أن تلين بعد أبائها وتضيع تحت جناحه اذا تابعها بعلمها فأشرت ، وخافها

(\*) كناية من البقطة



أهلها فأمّنت ، فساء عند ذلك حالها ، وقبح عند ذلك  
 دلالتها ، فان جاءت بولد أحققت ، وان أنجبت فعن خطا ،  
 أنجبت ، فاطو ذكر هذا عنى ، ولا تسمه على بعد . وأما  
 الآخر فبعل الفتاة الخريدة ، الحرة العفيفة ، وانى لاخلق  
 مثل هذا لموافقة فزوجنيه « فزوجها الثانى وكان هو أبا  
 سفيان بن حرب فولدت منه معاوية مؤسس دولة بنى أمية  
 الشهيرة وأحد نجباء العرب ودهاتهم  
 فهكذا كان مقام المرأة فى قوم سيدتنا « خديجة »  
 لا يفتات أهلها عليها فى حقها ، وهكذا كان رأى ذوات الحجى  
 والزكاة منهن

### اشتراك النساء فى السياسة

ولقد كان كثير من نساء العرب يشاركن فى السياسة  
 والشئون العامة ، وناهيك ان الحرب التى ظلت مستعرة  
 نحو من أربعين سنة بين بنى ذبيان وبنى عبس لم يفكر  
 فى اطفاء نارها الا امرأة ولم تتمكن من اطفائها الا بما لها من  
 المكانة وحسن الرأى ، وذلك ان بيهسة بنت أوث بن حارثة  
 ابن لام الطائى لما زوجها أبوها من الحارث بن عوف المرى  
 وأراد أن يدخل عليها قالت : اتفرغ للنساء والعرب يقتل  
 بعضهم بعضا ؟ - تعنى بنى عبس وبنى ذبيان - فقال لها :  
 وبماذا تشيرين ؟ قالت : أخرج الى هؤلاء القوم فأصلح بينهم  
 ثم أرجع الى . . فخرج وعرض الامر لخارجة بن سنان  
 فاستحسن ذلك ، وقاما كلاهما بهذا الامر ، فتم الصلح  
 ودفعا الديات من أموالهما

وحسبك من اشتهرن من العربيات فى السياسة ، منهن  
 اللاتى كن من شبيعة الامام على أيام مناصبة معاوية له  
 مسودة بنت عمار بن الاشر الهمدانية ، وبكاره الهلالية ،  
 والرقاء بنت عدى بن قيس الهمدانية ، وأم سنان بنت  
 بشمة بن خرشة المدحجية ، وعكرشة بنت الاطرش بن

رواحة ودرامية الحجونية ، وأم الخير بنت الحريش  
بنت سراقا البارقي ، واروى بنت الحارث بن عبد المطلب  
الهاشمية

وفدت سودة على معاوية بعد موت علي فاستأذنت عليه  
فأذن لها فلما دخلت عليه سلمت سودة فقال لها كيف أنت  
يا ابنة الاشتر ؟ قالت بخير يا أمير المؤمنين ، قال لها أنت  
القائلة لأخيك :

شمر كفعل أبيك يا ابن عمارة يوم الطعان وملتقى الاقران  
وانصر عليا والحسين وراعهطه واقصد لهند وابنها بهوان  
ان الامام اخا النبي محمد (١) علم الهدى ومنارة الايمان  
فقد الجيوش وسر امام لوائه قدما بأبيض صارم وسان  
قالت : « يا أمير المؤمنين ، مات الرأس ، وبتر الذنب ،  
فدع عنك تذكاري ما قد نسي » فقال : « هيهات ليس مثل  
مقام أخيك ينسي » فقالت : « صدقت والله يا أمير المؤمنين  
ما كان أخى خفى المقام ، ذليل المكان ، ولكن كما قالت  
الخنساء :

وان صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

وبالله أسألك يا أمير المؤمنين اعفائي مما استعفيت عنه قال:  
« قد فعلت فقولى حاجتك » فقالت: « يا أمير المؤمنين، أنك  
للناس سيد ، ولأمورهم مقلد ، والله سألتك عما افترض  
عليك من حقنا ، ولا تزال تقدم علينا من ينهض بعزك ،  
ويبسط بسططائك ، فيحصدنا حصاد السنبل ، ويدوسنا  
دياس البقر ، ويسومنا الخسيسية ، ويسألنا الجليلة ،  
هذا ابن اوطاة قدم بلادى ، وقتل رجالى ، وأخذ مالى ،  
ولولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة ، فأما عزلته فشكرناك ،  
وأما لا نعرفناك » فقال معاوية : « اياي تهديدين بقومك ؟

---

(١) اخوة الدين

والله لقد هممت أن أردك اليه على قتب أشرس فينفذ حكمه فيك » فسكتت ثم قالت :

صلى الاله على روح تضمنه قبر فأصبح فيه العدل مدفونا قد حالف الحق لا يبغى به ثمنا فصار بالحق والايمان مقرونا قال : ومن ذلك ؟ قالت : على بن أبى طالب رحمه الله تعالى ، قال : ما ارى عليك منه اثرا ، قالت : بلى أتيتته يومافى رجل ولاه صدقاتنا فكان بيننا وبينه ما بين الفث والسمين فوجدته قائما فانفتل من الصلاة ثم قال برافة وتعطف الك حاجة ؟ فأخبرته خبر الرجل فبكى ثم رفع يديه الى السماء فقال « اللهم انى لم آمرهم بظلم خلفك ، ولا ترك حقك » ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب فكتب فيه ( بسم الله الرحمن الرحيم ، قد جاءكم موعظة من ربكم ، فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا فى الارض مفسدين ، بقية الله خير لكم ان كنتم مؤمنين ، وما انا عليكم بحفيظ ) اذا اتاك كتابى هذا فاحتفظ بما فى يدك حتى ياتى من يقبضه منك والسلام » قال معاوية اكتبوا لها بالانصاف لها والعدل عليها فقالت « الى خاصة أم لقومى عامة ؟ » فقال : « ماأنت وغيرك ؟ » قالت : « هى والله الفحشاء واللؤم ان كان عدلا شاملا والا يسعنى ما يسع قومى . قال : اكتبوا لها بحاجتها

ووفدت بكارة الهلالية أيضا على معاوية بعد موت على ، فدخلت عليه ، وكان بحضرته عمرو بن العاص ومروان وسعيد بن العاص فجعلوا يذكرونها بأقوالها التى قالتها فى مشايعة على ومعاداة معاوية ، فقالت أنا والله قائلة ما قالوا وما خفى عنك منى أكثر ، فضحك وقال : ليس يمنعنا ذلك من برك

وكتب معاوية الى عامله بالكوفة أن يوفد اليه الزرقاء اينة عدى بن قيس الهمدانية مع ثقة من ذوى محارمها

وعدة من فرسان قومها ، وأن يوسع لها في النفقة ، فلما  
 وفدت على معاوية قال : مرحبا ، قدمت خير مقدم قدمه  
 وافد كيف حالك ؟ فقالت : بخير يا أمير المؤمنين ، ثم قال  
 لها ألسنت الراكبة الجملة الاحمر والواقفة بين الصفيين  
 تحضين على القتال وتوقدين الحرب فما حملك على ذلك ؟  
 قالت : يا أمير المؤمنين مات الرأس وبتر الذنب ، ولا يعود  
 ما ذهب ، والدهر ذو غير ، ومن تفكر أبصر ، والامر يحدث  
 بعده الامر . قال لها : اتحفظين كلامك يومئذ ؟ قالت : لا والله  
 لا أحفظه ، قال : لكني أحفظه ، وتلا عليها خطبة من خطبها  
 التي هي في منتهى البلاغة ، ثم قال لها : والله يا زرقاء لقد  
 شاركت عليا في كل دم سفكه ، قالت : احسن الله بشارتك  
 وادام سلامتك ، فمثلك يبشر بخير ويسر جليسه ، قال :  
 أو يسرك ذلك ؟ قالت : نعم والله ، فقال : والله لو فاءؤكم بعد  
 موته ، أعجب من حبكم له في حياته ، اذكرى حاجتك ،  
 فقالت : يا أمير المؤمنين أليت على نفسي ألا أسأل اميرا أعنت  
 عليه ابدا . ومثلك من أعطى من غير سؤال ، وجاءت من غير  
 طلب . قال : صدقت ، وأمر لها وللذين جاءوا معها بجوائز  
 ووفدت عليه أيضا أم سنان بنت جشمة وعكرشة  
 بنت الاطرش ، ولما حج سأل عن دارمية الحجونية فجاء  
 بها اليه فقال لها بعثت اليك لاسالك علام أحببت عليا  
 وأبغضتني ، وواليتك وعاديتني ؟ فاستعفتته فلم يفعل  
 فقالت له : أحببت عليا على عدله في الرعية ، وقسمه  
 بالسموية ، وأبغضتك على قتال من هو أولى منك بالامر ،  
 وطلبتك ما ليس لك بالحق ، وواليت عليا على حبه المساكين ،  
 واعظامه لاهل الدين ، وعاديتك على سفكك الدماء ،  
 وجورك في القضاء ، وحكمك بالهوى . ثم قال لها : يا هذه  
 هل رأيت عليا ؟ قالت : اي والله ، قال : فكيف رأيته ؟  
 قالت : رأيته والله لم يفتنه الملك الذي فتنك ، ولم تشغله

النعمة التي شغلتنك . قال : فهل سمعت كلامه ؟ قالت :  
نعم والله فكان يجلو القلوب من العمى كما يجلو الزيت  
صدأ الطست قال : صدقت فهل لك من حاجة ؟ قالت :  
نعم تعطيني مائة ناقة حمراء ، قال : ماذا تصنعين بها ؟  
قالت : أفدو بالبانها الصغار ، واستحيي بها الكبار ،  
واكتسب بها الكارم ، وأصلح بها بين العشائر ، قال : فإن  
أعطيتك ذلك فهل أحل عندك محل علي بن أبي طالب ؟  
قالت : سبحان الله أو دونه ، فقال أما والله لو كان علي  
حيا ما أعطاك منها شيئا ، قالت : لا والله ولا وبرة من  
مال المسلمين

وكذلك وفدت عليه أم الخير بنت حريش من الكوفة ،  
ووفدت عليه أروى بنت الحارث وجرى لهما معه حديث  
من مثل ما تقدم

فهكذا كان مقام المرأة العربية ، من أخوات سيدتنا  
القرشية ، وهكذا كان حظهن من الفصاحة والحصافة ،  
ومبلغهن من المشاركة في الأمور العامة ، والاخلد بالاسباب  
والمشايعة لبعض الاحزاب ، ومما اتينا الا باليسير توطئة  
لمعرفة مقام السيدة خديجة في قومها





## الفصل الخامس

### مقام فديجة عند قومها





## صفات خديجة

ما اكرم هذا المقام ! واى بليغ لا تأخذه الهيبة اذا دعى  
لتصوير هذه المنزلة ؟  
سيدة بطلعتها الفخامة والشرف يتجلىان ، والجمال  
والكمال يتألقان :

ومزايا كالزهر نفحا وطيبا وكزهر السما بهاء ونورا  
من شرف حسب ، الى كرم محتد ، الى سؤدد قبيل ،  
الى عز عشيرة ، الى جمال ذات ، الى كمال صفات ، الى  
فضل حجى ، الى طهارة نفس ، ذلك ما كانت تتزين به  
سيدتنا « خديجة » وذلك ما كانت تحل به بين قومها فى  
المكانة العليا والمقام الكريم

هذه المزايا ليست بالبدع من الاشياء ، وليس نبؤها  
بغريب بين الانباء بل هى معهودة فى كثير من النسوة ، ومع  
ذلك لم يكن لاسمهن نصيب غير الخمول ، قد طويت  
اعلامهن ، ولم ينشر ذكرهن ، ولم يسم فى اقوامهن مقامهن ،  
فكيف تسامى اسم « خديجة » وعلت منزلتها ؟

انما كان لخديجة ذلك الشرف بشىء آخر غير مزاياها ،  
ذلك الشىء هو ارتقاء مدارك قومها وسلامة اذواقهم وحسن  
انتظام مجتمعهم . وليس بكاف لتعالى امرىء أن يكون  
كاملا بل لابد مع ذلك من احاطة قومه علما بفضائله ووجود  
ميل فيهم للفضائل والكمال ، ومن المشهور أن الحجارة  
الكريمة عند من لا يعرف مزيتها لا قيمة لها وهى عند  
عارفيها فوق القيم ، فالحق أن ارتفاع من يستحق

الرفعة في قوم ليس دليلاً على فضله وسعادة جده وحده بل هو دليل أيضاً على فضل أولئك القوم وسعادة جدهم، فقد ربح قوم كان للأفاضل منزلة كريمة لديهم ، وخسر قوم لا يعلو بينهم الا من استعان بمختلف ألوان الحيل والخداع ، والنقائص المتغلبة على الطباع

وإذا كنا معجبين بالسيدة « خديجة » لوفرة مزاياها الكريمة ، فنحن بقومها الذين شرفوا هذه المزايا أشد إعجاباً . وليست « خديجة » وحدها هي التي نالت مقاماً كريماً في قريش بل كثير من فضليات نسائهم نلن المقام الكريم فيهم ، وكان لكثير منهن آثار مشكورة في مناصرة الإسلام الذي نقل العرب وغيرهم الى أعلى مما كانوا فيه ، ولم يستطعن ذلك إلا بما لهن من القدر الذي يليق بإنسان ذي رأى معدود ، وعقل مذكور ، ونفس مشابهة . وحسبك من هذا أن ذلك الرجل العظيم عمر بن الخطاب أبا العدل وأبا الفتوح وأبا السياسة والإدارة لم يكن إسلامه إلا بمحاورة سيدة من أولئك السيدات القرشيات هي اخته فاطمة زوجة ابن عمه سعيد بن زيد ابن عمرو بن نفيل

نحن نعلم أن أكثر الناس يمرون بالمزلة يعهدون أمثالها، فلا يلتفتون إليها مالم تكن رائعة وفوق ما اعتادوا . وهذا عندنا ضار لأن فيما يعهدونه أيضاً ما يستحق الالتفات إليه ، ويفرى بالانتفاع منه أن كان مواطناً نافعاً ، والتغافل عن الإنسان النافع الموهوب يؤدي الى الحرمان من مواهبه الفذة وصفاته غير المعهودة

وليس من شك في أن كثيراً من الأشياء التي صرفتنا الألفة عن اجلال شأنها هي من جلال الشأن عند الامعان فوق ما نتصور . وفي كثير مما لا نتأمل فيه منها ما تخر الافكار صاغرة أمام زاخر فوائده وباهر أسرارها ، فلذلك

احببنا أن نعرض للقارئ عرضاً سريعاً تفصيل تلك المزايا التي شرفها قوم «خديجة» حتى كانت بها كريمة المقام فيهم لانه ربما اختلج في صدره التعجب من اكبارنا شأن مزايا معهودة في كثيرين ، وقد يكون قارئنا من حزب الاكثريين الذين لا يبالون بالمعهودات ، ولا يترربون بغير الغرائب

نعم . . نحن لم نظرف بما فوق المعهود ، ولم نهـد ما وراء المشهود ، ولا علـنا بمبتدعات التصور ، ولا لـنا بغرائب الحوادث ، وشواذ المصادفة ، وخوارق العادة ، ولم نمـت الى افئدة القراء الا بمعروف له أمثال ، ومألوف لا تضيق بتصديقه الافكار ، ولكن الامر عندنا في هذه المعهودات على ما قلنا . واذا ثبنا اليها بنظر الامعان غير وسنائة عين بصيرتنا الفينا فيها عند سام النفس من لذة الحس ، أعظم ما نتوق اليه من لذة التصور وفائدة الادراك

واذا كانت الحياة واحدة كان جديرا بنا أن نقف متذكرين هذه الوحدة ابداً امام كثرة اختلاف المظاهر وشدة احتجاب الاسرار ، ولم يكن حسنا بنا أن ننسى احاسن ما تلده لنا هذه الام من الصور التي لا تحصى

اننا بتذكرنا من سادوا وشادوا ، وبتذكرنا من صلحوا وأصلحوا ، وبتذكرنا من أوجدوا وايتدعوا . . نتذكر تاريخ أمتنا الحياة وترتاح نفوسنا باستجلاء احسن صورها ، وتتوارد عليها اللذة باشتياقها الى نصيب من ثروة تلك الام التي جادت بمقادير منها عظيمة على اخوتنا اصحاب تلك المظاهر ولاسى تلك الصور ، ولم لا نتوق الى حديث ذلك التراث وهو يملأ كنوزا ان عجزت افكارنا أن تحيط بكنهه جواهره خبرا فهي لا تعجز ان تأتينا بلذة من التأمل في بديع كيانها والامل ببلوغ ما تميل اليه النفس منها



## الفصل السادس

### فضائل خديجة



## المثال الاسنى

تبارك واهب الحياة ، فقد أبدع لنا في « خديجة »  
المثال الاسنى منها ، وأطلع لنا في شخصها زواهر الانسانية  
الفضلى ، وبنور هذه الزواهر رأينا مدارك قريش في  
الافق الاعلى ، وتربيتهم الادبية والعقلية في المنزلة العليا

نحن معشر بنى الحياة متفاوتون كثيرا في قوى النفوس  
واكثرنا في الحقيقة مغبون الحظ منقوص النصيب من  
القوى التى تكون بها الحياة هنيئة شريفة مسعدة  
لصاحبها وغيره ، وقليل منا من رزقوا فضلا من هذه  
القوى النافعة الآتية بالغبطة والحبور . ولدى التأمل  
نجد الاستعداد الفطرى للشخص هو الاساس في حسن  
الحظ من هذه القوى النافعة ثم للتربية دخل كبير ، فاذا  
اجتمع في الشخص استعداد حسن وتربية حسنة كان  
حظه عظيما من فضائل النفس . وقد اجتمعا في « خديجة »  
فراينا في سيرتها ذلك المثال النادر ، والكمال العظيم

عرفنا حسن استعدادها ، لان التربية وحدها لا تفعل  
شيئا في جوهر النفس اذا لم يكن مهيا للافادة منها ، كما لا  
يصلح الماء ، لان تطبع فيه ما تشاء ، وعرفنا حسن تربيتها  
لان الاستعداد وحده لا يسير بصاحبه الى المرغوب في  
المجتمع . ومن حسن استعداد هذه السيدة وحسن  
تربيتها عرفنا شيئا آخر جديرا بالتنويه ، وقلما رأينا من  
نوه به أو التفت اليه ، فلذلك عنيينا به نحن كثيرا في صدد  
هذه السيرة وهو ارتقاء قوم « خديجة » ارتقاء عظيما فان

التربية الشخصية مقتبسة في الغالب من التربية العامة ،  
 والمجتمع غالبا اشبه بالمرآة يرينا من الاشياء مقبولا  
 ومردودا ومسكوتا عنه . وتشتهر المقبولات حتى يطلق  
 عليها اسم المعروف ، والمردودات حتى يطلق عليها اسم  
 المنكر . ويضطر الناس الى تقرير تربية عامة ، هي الا  
 يخالف المعروف ولا يوافق المنكر ، ويبقى الناس سبيح  
 في المسكوت عنه من الاشياء حتى يرى كل منهم رايه فيها،  
 فهذا يستحسن شيئا حتى يوجبه على نفسه ، وذلك  
 يستقبح شيئا حتى يحرمه عليها . واعقل الناس في هذه  
 الاشياء المسكوت عنها من جعل المعروف والمنكر معيارا لها  
 فكل ما قرب من المعروف كان حسنا ويكون وجوبه على  
 حسب درجة قربه من المعروف ، وكل ما قرب من المنكر  
 كان مستردلا . . ويكون حظره على حسب درجة قربه من  
 المنكر . والاصل في المنكر هو الاذى والعدوان ، وعليه  
 قيس الاصل في المعروف قياس الضد فالاصل فيه  
 العدل والاحسان

فعلى هذين الاصلين تقوم دعامة النظريات في التربية  
 وعليهما تشاد الاعمال فيها

واى باحث لا تأخذه هيبة اذا طلع على ما كان لقوم  
 « خديجة » من التعمق في دقائق هذا الفن من حيث النظر،  
 وعلى بدائع النتائج فيه من حيث العمل ، اى والله ان  
 هؤلاء القوم النازلين في ذلك البلد الصغير البعيد، واخوانهم  
 الآخرين الضاربين في تلك الفياض، يدهش الباحث مما يراه  
 لهم من الباع الطويل في فن التربية على مقتضى مجتمعهم  
 ذلك . فتراهم مثلا لما كانت السماحة ضرورية - ولا سيما  
 لذلك المجتمع - جعلوها في المقام الاول ، ولم يألوا جهدا  
 بطبعها في النفوس حتى نبغ فيهم أجواد بلغوا بهمتهم في  
 الجود الكواكب ، وازينت الارض بمناقبهم ، واشار



أخيهـم الإنسان على أنفـسهم ، كما فعل كعب بن مامة الذى  
آثر رفيقه بمائه ومات هو عطشاً

ولما كانت الشجاعة ضربة لازب لكل شخص وكل جماعة  
فى كل زمان وكل مكان ، تجدهم جعلوها شعار المحامد وتاج  
المناقب وسيروا فيها ضربوه من الأمثال قولهم « الشجاع  
موقى ، والجبان ملقى » وكانوا يتمادحون بالموت قتلاً  
ويتهاجون بالموت على الفراش . ولما بلغ عبد الله بن الزبير  
— وهو ابن أخى خديجة — قتل أخيه مصعب خطب فقال  
« ان يقتل فقد قتل أبوه وأخوه وعمه ، اننا لا نموت حتفاً  
ولكن قطعاً بأطراف الرماح ، وموتاً تحت ظلال السيوف ،  
وان يقتل المصعب فان فى آل الزبير خلفاً منه » ذلك لانهم  
كانوا يكرهون الحياة اذا لم تشرف ، ويرون الحياة الرذيلة  
معرضة للعدم اكثر من الحياة الشريفة . ولئـل هذا يقول  
على بن أبى طالب « بقية السيف أنمى عدداً ، وأطيب (١)  
ولداً » وتقول الخنساء وهى إحدى الشهيرات فى العرب :

نهبـن النفوس وبذل النفوس      س يوم الكريهة أبقى لها  
لا يستنكرن أحد اذا قيل له ان الشجاعة — وهى  
السجية التى لا ترقى الامم اذا خلت منها — كانت فى  
العرب من الصفات الشائعة التى لا يعتدون بأحد منهم مالم  
تكن فيه ، وقد سهل على نفوسهم انطباع هذا الخلق  
فيها لأن أكثر شئ كانوا يتناقلونـه هو حديث الشجعان  
واقدامهم فى الشدائد حتى فضلوا ، والجبناء وأحجامهم  
فيها حتى رذلوا ، وهنالك من الشعر فى الشجاعة والشجعان  
ما يفعل فى النفوس فعل السحر فيحولها من الخوف على  
الحياة والهـرب بها الى الخوف على الشرف حتى تهون  
النفوس فى سبيله تقول عنبرة وهو أحد مشهورى  
شجعانهم :

(١) وفى رواية والجـب

بكرت تخوفنى الحتوف كأننى  
 أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل  
 فاجبتها أن المنية منهل  
 لا بد أن أسقى بكأس المنهل  
 فاقنى حياءك لا أبالك واعلمى  
 أنى امرؤ ساموت ان لم اقتل  
 وقد يظن البعض ان شجاعة العرب وبأسهم لم تكن الا فيما  
 بينهم ، ومثل هذا الظن من قلة الاطلاع على جملة أخبارهم  
 فنحن لا نريد ان نأتى بآية على شجاعتهم مما فعل هؤلاء  
 القوم بعد إسلامهم ، فان ذلك مشهور . . ولكن حسبنا ان  
 ندل القارىء على ما كان من بأس العرب يوم ذى قار اذ أراد  
 كسرى ان يوقع سوءا بينى بكر بن وائل لسبب لا محل  
 لتفصيله هنا ، فاعد لهم جيشا كبيرا ليهلكهم به ، وبلغهم  
 خبره فاستعدوا له واعانتهم قبائل اخرى فتوافوا بواد اسمه  
 ذو قار ، وكانت الهزيمة من نصيب جيش كسرى ، وقد تبعهم  
 العرب الى داخل البلاد الفارسية ، وهى واقعة مشهورة  
 كثرت فيها الأشعار ، وظهر فيها ما للشجاعة من الفضل فى  
 كسب الفخار ، وحمى الدمار ، واتقاء العار ، وفى هذه  
 الواقعة يقول الأعشى أعشى بنى بكر :  
 وجند كسرى غداة الحنو صبحهم  
 منا غطاريف ترجو الموت وانصرفوا  
 لقوا ململة شهباء يقدمها  
 للموت لا عاجز منا ولا خرف  
 فرع نمتسه فروع غير ناقصة  
 موقوف حازم فى أمره انسف  
 فيها فوارس محمود لقاءهم  
 مثل الاسنة لا ميل ولا كشف  
 لا راونا كشفنا عن جماجمنا  
 ليعلموا أننا بكر فينصرفوا

قالوا البقية والهندي يحصدهم  
ولا بقية الا السيف فانكشفوا  
لو أن كل معد كان شاركنا  
في يوم ذي قار ما أخطاهم الشرف  
لما أمالوا الى الشباب أيديهم  
ملنا ببيض لمثل الهام تختطف  
إذا عطفنا عليهم عطفة صبرت  
حتى تولت وكاد اليوم ينتصف  
بطارق وبنى ملك مرارية  
من الاعاجم في آذانها الشنف  
من كل مرجانة في البحر أحرزها  
تيارها ووقاها طينها الصدف  
كانما الآل في حافات جمعهم  
والبيض برق بدا في عارض بكف  
مافي الخدود صدود عن سيوفهم  
ولا عن الطعن في اللبات منحرف

\*\*\*

وفي هذه الواقعة يقول العدلي بن الفرج العدلي :  
ما أوقد الناس من نار لمكرمة  
الا اصطينا وكنا موقدي النار  
وما يعدون من يوم سمعت به  
للناس افضل من يوم بدى قار  
جئنا بأسلابهم والخيئل عابسة  
لما استلبنا لكسرى كل أسوار

\*\*\*

وفيهما يقول شاعر آخر من بني عجل :  
ان كنت ساقية يوما ذوى كرم  
فاسقى الفوارس من ذهل بن شيبانا

واسقى فوارس حاموا عن ذمارهم  
 واعلى مفارقهم مسكا وريحانا  
 وهى واقعة شهيرة ظهرت فيها الشجاعة العربية اكمل  
 مظهر ، وكان المنذر لهم بنية كسرى وعزمه لقيط الايادى ،  
 اذ كتب الى بنى شيبان يخبرهم بذلك فى شعر مشهور غاية  
 فى البلاغة والتحميس واستشارة العزائم وفيه يقول :  
 قوموا جميعا على امشاط ارجلكم  
 ثم افزعوا قد ينال الامن من فزعا  
 وقلدوا امركم لله دركم  
 رجب الدراع بأمر الحرب مضطلعا  
 لا مترفا ان رخاء العيش ساعده  
 ولا اذا عض مكروه به خشعا  
 ما زال يجلب هذا الدهر اشطره  
 يكون متبعا طورا ومتبعنا  
 حتى استمر على شز مريرته  
 مستحكم الراى لافحما ولاضرعا (١)  
 وليس يشغله مال يثمره  
 عنكم ولا ولد يبقى له الرفعا  
 فعلى مثل ما ذكرنا كان نصيب العرب عامة ، وقبيلة  
 خديجة خاصة ، من الشجاعة التى لا قوام للامم بدونها  
 وكانوا لا يعتدون بالجبان ولا يعدونه شيئا مذكورا .  
 ينبشك بذلك قول أحد شعرائهم :  
 خرجنا نريد مفارا لنا      وفيما زياد أبو صعصعه  
 فستة رهط به خمسة      وخمسة رهط به أربعة

(١) الريرة طاقة الحبيل ، والجبل الشديد الفتل والشرر الفتل  
 عن اليسار . والمعنى استحكم امره وقويت شديته ، والفهم الرجل  
 الهرم والفرع الضعيف

## حكمة العرب ومعارفهم وآدابهم

ثم لم يكن نصيب قوم «خديجة» في فقه النفس والحكمة والمعارف باقل من نصيبهم العظيم في الشجاعة فقد كانوا يتناقلون المعارف ويتدارسونها من غير كتب وكان لهم المام قليل بحركات الكواكب والانواء التي تتبعها . وهو يقتضى شيئا من معرفة الحساب ، وكان لهم معرفة غير قليلة بالطب والصحة الوقائية سواء في طب الانسان او طب الحيوان . والطب يقتضى أيضا نصيبا من علم الخواص التي اودعها البارى في المعادن والنباتات والحيوانات . . أما معرفتهم بالاخبار أى التاريخ فحدث عنها ولا حرج ، وكانوا يعبرون عن هذا العلم بعلم النسب ، فان علم النسب في الجميعه لا يهدف الى معرفة نسب الاشخاص والقبائل ، فان هذه معرفة بسيطة لا تستحق ان تسمى علما وانما كان الناسابون يعرفون اخبار أولئك الاشخاص ، واخبار تلك القبائل ، وهذا هو التاريخ . وربما كان السبب في اشتهار هذه المعرفة باسم علم الانساب ان عارفى الاخبار كان اليهم المرجع في معرفة الانساب التى من اهم فوائدها معرفة تفريع القبائل والحقاق الفروع بأصولها على شدة البعد بين الاصول وتلك الفروع احيانا . وقد كان منهم متخصصون في هذا العلم يقومون بتدريسه لمن يتلمذ عليهم . قال رؤبة بن العجاج : قال لى النسابة البكرى « يا رؤبة لعلك من قوم ان سككت عنهم لم يسألونى وان حدثتهم لم يفهمونى » يعيب بذلك على الذين لا يرغبون في تلقى هذا العلم حق الرغبة . قال رؤبة : فقلت له : انى ارجو الا اكون كذلك . قال : فما آفة العلم ونكرته وهجنته ؟ قلت : تخبرنى قال : آفة العلم النسيان ، ونكرته الكذب ، وهجنته نشره عند غير أهله «

وأما الحكمة والآداب والبيان فقد بلغ فيها هذا الشعب

العربي من التعمق في حفظها ودراسة الكلم الجوامع فيها مبلغا عظيما ويمكنني أن أقول أنها من أشهر ما اشتهر عنهم وهل يجد الباحث معنى من المعاني التي يخطر للنفس فيها الاستحسان أو الاستهجان الا ويجد لهم الشافي الوافي من البيان في تصويره وبراظه بأبدع حلة ، ولا ينبئك ببعض ذلك شيء كالمأثور من كلمهم الجوامع التي سارت مسير الامثال ، وكانت كالدرر الفرائد بين سائر الاقوال

ولا نستطيع ان نأتى هنا بقليل من ذلك الكثير لكيلا نبعد القارئ عن سياق السيرة ، ولكننا نذكر خبرا واحدا يدل على مقدار عناية العرب بتذاكر الحكم والآداب ، وصياغتها بأبدع البيان ، ومقدار ما وسعت منها تلك الافكار . ذكروا أن عمرو بن الظرب العدواني وحممة بن رافع الدوسي اجتماعا عند ملك من ملوك حمير فقال : تساءلا حتى أسمع ما تقولان . فقال عمرو لحممة : أين تحب أن تكون أياديك ؟ قال : عند ذي الرتبة العديم ، وعند ذي الخلعة الكريم ، والمعسر العديم ، والمستضعف الحليم . قال : من أحق الناس بالمقت ؟ قال : الفقير المختال ، والضعيف الصوال ، والغنى القوال . قال : فمن أحق الناس بالمنع ؟ قال : الحريص الكاند ، والمستמיד (١) الحاسد ، والمخلف الواجد ، قال : من أجدر الناس بالصنيعة ؟ قال : من إذا أعطى شكر ، وإذا منع عذر ، وإذا مطل صبر ، وإذا قدم العهد ذكر . قال : من أكرم الناس عشرة ؟ قال : من إذا قرب منح ، وإذا ظلم صفح ، وإذا ضويق سمح . قال : من الأم الناس ؟ قال : من إذا سأل خضع ، وإذا سئل منع ، وإذا ملك كتع ، ظاهره جشع ، وباطنه طبع (٢) قال : فمن أجل الناس ؟ قال : من عفا إذا

(١) المستמיד : المستطى

(٢) كتسع : انكمش وتقبض ، والجشع : الطمع والشره . .

قدر ، وأجمل إذا انتصر ، ولم تطفه عزة الظفر . قال :  
فمن أحزم الناس ؟ قال : من أخذ رقاب الاسود بيديه ،  
وجعل العواقب نصب عينيه ، ونبد التهيب دبر أذنيه ،  
قال : فمن أخرج الناس ؟ قال : من ركب الاخطار ، واعتسف  
العثار ، وأسرع في البدار ، قبل الاقتدار (١) قال : من أجود  
الناس ؟ قال : من بذل المجهود ، ولم يأس على المفقود .  
قال : فمن أبلغ الناس ؟ قال : من حلّى المعنى العزيز ،  
باللفظ الوجيز ، وطبق المفصل قبل التحزيز (٢) قال :  
من أنعم الناس عيشا ؟ قال : من تحلى بالعفاف ، ورضى  
بالكفاف ، وتجاوز ما يخاف الى ما لا يخاف . قال : فمن  
أشقى الناس ؟ قال : من حسد على النعم وسخط على  
القسم ، واستشعر الندم على ما انجتم ، قال : من أغنى  
الناس ؟ قال من استشعر اليأس ، وأظهر التجمال للناس ،  
واستكثر قليل النعم ولم يسخط على القسم . قال : فمن  
أحكم الناس ؟ قال : من صمت فادكر ، ونظر فاعتبر ووعظ  
فازدجر . قال : من أجهل الناس ؟ قال : من رأى الخرق  
مغنما ، والتجاوز مغرما

وما ذكرناه من جهة معارف القوم الذين نشأت منهم  
هذه السيدة كاف في الدلالة على أنه كان من جملة مايعنون  
به من التربية تثقيف ناشئتهم بما عندهم من المعارف على  
الطريقة التي القوها وتعودوها في التعليم ، وهى الطريقة  
الطبيعية الساذجة الخالية من الاصطلاحات ، والتعاريف  
والتفاصيل التي يحتاج اليها نفر قليلون ، ويستغنى عنها  
الآخرون . ولكل فرع أهله الذين لهم استعداد لالتقاطه  
بسهولة ، ولا يكلف البليد في شيء أن يكذب في تهمة ذهنه ،

(١) يريد بالبدار السباق الى معالجة الخصم ، وذلك قبل الانتذار  
خرق أى حماقة .  
(٢) تطبيق المفصل واصابته وابانة العضو بضربه . والتحزيز مبالغته  
الخرق في اللحم وغيره وهو البدء بقطعه

أو يرهق في. حفظه ذاكرائه ، أو. في توسيعه مخيلته  
ثم قد كان مما عني به العقلاء من رهط خديجة التربية  
على العدل . ولقد سبق أن تحدثنا عن ولعهم به ، وحرصهم  
على حماية المظلوم وانصاف المهضوم  
وكذلك ولعوا بامتداح العفاف ، واجلال الطهارة وأهلها  
. . وكان من أكرم القابهم وأجلها لقب الطاهر والطاهرة ،  
وفد حازت السيدة « خديجة » هذا اللقب باستحقاق ،  
اذ كان يقال لها « الطاهرة »

فاذا عرف المطالع الكريم أن هؤلاء القوم حظا كبيرا من  
هذه الاشياء التي هي أصول الفضائل ، نعني السماحة  
والشجاعة والحكمة والآداب والبيان والعدل والتعفف  
كان جذبرا به الا ينظر الى صغر شأن ذلك المجتمع اذا  
قورن بالدول الكبرى ، فان الفضل الانساني المنوح من يد  
الفاطر المبدع لا يتوقف عند زخرف البيوت وكثرة الدور  
في البلد الواحد ، بل يصل ذلك الفضل بارسال رباني من  
يده سبحانه الى الذرات الصغيرة التي في الادمغة ويختص  
به سبحانه أفرادا ممن عنوا بتوجيه العقول والقلوب الى  
صفاء النفس ، وتزكيتها من النقائص ، وتحليتها بالفضائل،  
ممن لم يجعلوا أكبر همهم تجويد المأكول والملبس والمسكن  
والفراش . فاذا كثر من هؤلاء الافراد في أمة ظهرت وان  
حل الخفاء بهم ، واستوفت وان بخس الوزن لهم ، ولم  
يكن الافراد الذين تلقوا هدية الفضل الانساني من الاحسان  
الرباني قليلين في قوم خديجة الفاضلة بل كانت كثرتهم خير  
مقدمة لخير نتيجة هي ظهور ذلك الرسول الكريم الذي  
كان من أكبر مميزات جماعته الامر بالمعروف والنهي عن  
المنكر ، أولئك الذين وافاهم الوحي بنعتهم بما هم أهله  
قائلا ( كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف  
وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله )



## الفصل السابع

### جمال خديجة



## الجمال محبوب

الجمال محبوب لذاته عند الطبع ، ومحبوب لفائدته عند العقل ، ومع كثرة ما الفت العيون رؤيته ، والآذان سماع أحاديثه ، لا تزال أسرار موضوع التأمل ، ولا تزال دقائق تأثيراته محل الإعجاب ، كيف لا وهو السر الأعظم في جذب الانسان الى مكانته العليا من الابداع ، والسبب الاكبر في ابعاد ما بينه وبين الحيوان في مراقى الوجدان والادراك ، فشرفه مجمع عليه عند بنى آدم بغير خلاف بينهم . وای قوم حرموه فقد باءوا بحرمان عظيم . ولذلك لم نجد بدا عن ذكر هذه المزية الاخرى لقوم « خديجة » فانها مزية جديرة بالذكر لا سيما بعد أن اشتهر عند من لم يعرف هؤلاء القوم انهم كانوا لا حظ لهم من الجمال ، ولا ذوق لهم في الحسن ، ولا نصيب من توجه النفس الى الاحسن كبرت سبة أن يكون قوم « خديجة » على ما يظن هؤلاء الذين لا تستسيغ أذهانهم أن يكون القوم سكان اقليم حار وذوى شظف من العيش ، ثم يكونوا مع ذلك ذوى خلقة جميلة وصورة بديعة

وكبر منا تقصيرا الا نبين في هذا الباب ما هو من جملة مناقب هذه السيدة وقومها ، فان استغرب قوم - لم يعيروا اسرار الخليقة نظرة - تخصيصنا فصلا لهذا الموضوع فانهم سيرونه فيما بعد مكيئا في موضعه

ان العرب قد تناسبت قسما وجوههم ، وتناسقت اجسامهم ، واعتدلت اشكالهم . . بياضهم جميل ، ليس

فيه بهق بعض الاجيال ، وبشرتهم لطيفة ، ليس فيها حلقة بعض الاقوام ، ولعل من فازت من حسانهم بحظ عظيم من الجمال تقل نظائرها في حسان الآخرين ، وتكون آية المنتهى في جمال العالمين

والمشهور ان الجمال يختلف في اذواق الناس ولكل جيل قياس في الحسن لا يأتي عليه قياس جيل آخر ، ولكن من أمعن فيما يتناقله الكل من صفات الحسن يجد ثمة ناحية جامعة ومقياسا واحدا تتفق معه المقاييس كلها وذلك ان الحسن الذي لا خلاف فيه ، ليس هو بلون الاديم . . وانما هو باعتدال القامة ، واستواء الهامة ، وتناسب اجزاء الوجه ومقاطعها ، وحلاوة الميسم ، وملاحة العينين ، ولطف الحاجبين ، ورقة الشفتين . . ولعل هذه الصفات تكثر في العرب حتى ندر ان نجد غير موصوف أو موصوفة بالحسن من مشاهيرهم وشهيراتهم . . واذا اضيف الى ما ذكرناه بياض الاديم وتشربه بحمرة او صفرة كان ذلك فضلا في الجمال ، قد يبلغ به منتهى الكمال ، ولم يكن هذا اللون قليلا بين العرب عامة وقوم خديجة خاصة

والعرب لم يكثروا في كلامهم من شيء بمقدار ما اكثروا من وصف الجمال وقد رأيناهم يستحسنون هذين اللونين كثيرا : البياض المشرب بحمرة أو البياض الضارب الى صفرة . يقول ذو الرمة أحد شعرائهم :

بيضاء صفراء قد تنازعا لونان من فضة ومن ذهب

وهذا اللون هو لون اللؤلؤ ، وقد جاء في القرآن المجيد تشبيه حسان الجنة باللؤلؤ المكنون ولا يختلف أحد الى عهدنا هذا ، في أن هذا اللون الذي تكون صاحبه أقرب الى الكمال في الجمال اذا اخذت بحظ من تناسب بقية أعضاء الجسم ، فانه عندما ينطبع فيه الاحمرار لسبب من

الاسباب تكون حمرة الطف من الحمرة اللازمة لبعض  
البيض ، وعن مثل هذا عبر عدى بن زيد أحد شعراء العرب  
بقوله :

حمرة خلط صفرة في بياض مثلما حاك حائك ديباجا

ولكثر البياض اللطيف في العرب شبهوه بالصبيح  
واشتقوا من الصبح لونا فقالوا للأبيض صبيح ، واشتقوا  
من الزهر لونا فقالوا للأبيض المشرب بحمرة زهر ، وتشبيههم  
بورد الخدود دليل على كثرة هذا اللون فان هذه الحمرة  
لا تنطبع الا على اديم أبيض ، ورأيناهم يشبهون الاعناق  
كثيرا بأباريق الفضة كما قالت قريبة بنت حرب أخت أبي  
سفيان في أعمامها وأخوالها

### حب الجمال

وليس بعجيب بعد أن كان الجمال الرائع من جملة  
خصائص العرب أن نجدهم مفرغى القلوب بمجالي تجلياته ،  
منصرفي الوجوه الى مشارق أنواره . . ثم لا بدع بعد ذلك  
إذا وجدنا حب الجمال قد لطف أذواقهم ، وعودهم على  
الاستحسان ونقلهم من حال الى حال ، الى أن تهاوا لقبول  
الدعوة التي ارتقت بهم من هذا الجمال الى أعلى ، ومن هذا  
الغرام الى ما هو أولى . . نقلتهم الى تصور الجمال الالهى  
مصدر كل جمال ، ورقت بهم الى عشق الكمال المعنوى  
الذى هو فوق كل كمال ، فلم يصعب على أولئك الذين  
شففهم الجمال المحسوس ، أن يفهموا الجمال المعقول ،  
وأن يزدادوا نصيبا منه مع نصيبهم من ذاك ، ولم يعز عليهم  
أن ينتقلوا الى العالم الجديد الذى دعوا اليه ، لأنه تبدى  
لهم أجمل مما كانوا عليه

ونحن اذ نرى للعرب الحظ الاوفر من الشفق بالحسن  
والاستحسان يزيد قدرهم فى اعتقادنا ، ونرى فى غير تردد

أنهم كانوا لذلك العهد من أرقى الأجيال الراقية على بعدهم  
عن الزخرف ، وعدم تعلقهم بكل أسباب الحضارة ، ولعلنا  
إذا بحثنا عن المؤثر الأعظم في وفرة جمال هذا الجيل نجد  
ذلك لأنهم حرصوا على الاعتدال في المعاش ، وانتقلوا الى  
المعتدل من الأقاليم ، وجب اليهم المعتدل من المهن والاعمال ،  
وأضافوا الى ذلك أنهم لا يتزوجون من غير رؤية غالباً  
وللانتخاب دخل كبير في تحسين الجنس وتجويد النسل .  
وإن بدا لاحدهم أن يتزوج بمن سمع بجمالها سماعاً ،  
تجده لا يقصر في البحث والتدقيق بواسطة من يثق بحسن  
ذوقهن ، وجودة أمانهن ، والحكاية الآتية تدلنا على مقدار  
حرصهم على اختيار الجميل وعلى مبلغ تذوق هذا الشعب  
للجمال :

أراد ملك من ملوكهم ( وهو عمرو بن حجر ملك كندة جد  
امرىء القيس ) أن يتزوج ابنة عوف بن محلم ( الذي يقال  
فيه لا حر بوادي عوف لأفراط عزه ) وكانت ذات جمال  
فوجه اليها امرأة يقال لها عصام ، لتراها وتحقق مما بلغه  
عنها ، فلما رجعت قال لها الملك : ما وراءك يا عصام ؟

قالت : رأيت جبهة كالمرآة الصقيلة يزينها شعر حالك ،  
إن أرسلته خلته السلاسل ، وإن مشطته خلته عناقيد كرم  
جلاله الوابل ، ومع ذلك حاجبان كأنما خطا بقلم ، أو سودا  
بحجم ، قد تقوسا على مثل عين العبهرة ، التي لم  
يزعجها قانص ولم يذعرها قسورة ، بينهما أنف كحد  
السيف المقصول لم يخنس به قصر ولم يمعن به طول ،  
حفت به وجنتان كالارجوان ، في بياض محض كالجمان شق  
فيه فم كالخاتم للذي المتسم فيه ثنايا غرر ، ذوات  
أشر يتقلب فيه لسان ، ذو فصاحة وبيان ، يزين به عقل  
وافر ، وجواب حاضر ، يلتقي بينهما شفتان حمراوان كالورد ،  
تجلبان ريقاً كالشهد ، تحت ذاك عنق كابر يق. الفضة ،

ركب في صدرها تمثال دمية ، يتصل به عضدان ممثلان  
لحما مكتنزان شحما ، تعقدان شئت منهما الانامل ، نثا  
في ذلك الصدر ثديان كالرمانتين يحرقان عليها ثيابها - الى  
ان قالت حين انتهت الى وصف ساقها - وشبتا بشعر  
أسود ، كأنه خلق الزمرد ، يحمل ذلك قدمان ، كحذو  
اللسان - فتبارك الله مع صغرها ، كيف يطيقان حمل  
ما فوقهما »

ووصفهم الحسن والجمال في الشعر مشهور كقول  
النايفة في المتجردة زوجة النعمان من قصيدة :

ويزين فوديهما اذا حسرت  
صافي الفدائر فاحم جعد  
فالوجه مثل الصبح مبيض  
والفرع مثل الليل مسود  
وجبينها صلت وحاجبها (١)  
شخت المخط ازج متمد  
وكانها وسنى اذا نظرت  
أو مدنف لما يفق بعد  
فهذا مثال من أمثلة الجمال العربي الذي كان لرهط  
خديجة حظ منه كبير ، ولم يكن حظها هي منه قليلا




---

(١) الصلت : الواضح والشخت : الضمور من غير هزال





## الفصل الثامن

### نعمّة الشراء



## ثراء خديجة

وكان للسيدة « خديجة » مع ما أتاها الله من الجمال وفضائل النفس حظ من الثراء أيضا ، وثراؤها في حياة أيها . كانت تاجرة ، ولعل أباه منحها رأس المال بادىء بدء لم يكن اشتغال سيدتنا هذه بالتجارة شيئا يعجب منه في قومها ، فانهم كادوا يكونون كلهم تجارا . . تقضى بذلك طبيعة مقامهم في ذلك البلد وشريعة تربيتهم على طلب المجد واتساع السؤود ، ومنافسة الأقرب والابعد ، ولولا شغفهم بهذا لما سمعنا بأنباء سبقهم في التجارة من بين اخوانهم الآخرين . ولولاه لاستطابوا من العيش ما استطابه ذلك الاعرابي الذي سئل عن طعامهم في البادية فقال لسائله : « بخ يخ عيشنا عيش تعل جاذبة » (١) وطعامنا أطيب طعام وأهنؤه وامرؤه : ألقت (٢) والهيبد (٣) والصليب (٤) والعلهز (٥) والذآنين (٦) والعراجين (٧) والضباب (٨) واليرابيع (٩) والقنافذ (١٠) وربما أكلنا والله القد (١١) واشتوينا الجلد ، فما نعلم أحدا أخصب منا عيشا ، ولا أرخى بالا ، ولا أعر حالا ، أو ما سمعت قول

- 
- (١) تعلل من اللعل وهو الشرب بعد الشرب .  
 (٢) ألقت الفصصة وهي الرطبة من علف الدواب .  
 (٣) الهيبد الحنظل يكسر ويستخرج حبه وينقع لتذهب مرارته ويتخذ منه طبيخ يؤكل عند الضرورة (٤) الصليب يستخرجونه من العظام بعد أخذ اللحم منها .  
 (٥) العلل قراد كبير وثبات ينهب في بلاد بني سليم وطعام يتخذ في المجاعة من الوبر والدم  
 (٦) اللآنين جمع تؤنون ثبت طويل ضعيف له رأس مدور .  
 (٧) العراجين جمع مرجون ، العود من النخل .  
 (٨) - ٩ - ١٠ الضباب ، الجرابيع والقنافذ حيوانات معروفة .  
 ( ١١ ) القد جلد السحلة .

شاعر وكان والله بصيراً برقيق العيش ولذيذه :  
 اذا ما أصبنا كل يوم مديقة (١)  
 وخمس تمرات صفار كوانز  
 فنحن ملوك الناس خصباً ونعمة  
 ونحن أسود الناس عند الهزاهز  
 وكم متمن عيشنسا لا يناله  
 ولو ناله أضحى به حق فائز  
 فالحمد لله على ما بسط من حسن الدعة ، ورزق من  
 السعة ، وإياه نسال تمام النعمة »  
 هذا ما استطابه الاعرابى وحمد الله عليه هذا الحمد .  
 وما الاعراب الا بشر قد يستطيب غيرهم من البشر  
 ما يستطيعون اذا خلصوا الى مثل معيشتهم ومارسوها  
 لكن من الناس من لا يطلبون في الحقيقة ما يقيم مادة البدن  
 فقط كما تطلبه سائر الحيوانات ، بل يتسابقون الى ما به  
 الغبطة من المقتنيات والدخائر . ويتبارون في ما به التمايز  
 من المستحسنات والبدائع ، وبمثل هؤلاء يزيد الله الانسان  
 بسطة من المعارف وقوة في المدارك  
 وقريش ، كما عرف القارىء ، كانوا ممن أعدهم الله لعمل  
 عظيم في الارض ولا يتم ذلك بحسب سنته سبحانه ما لم  
 يكن في سابق تربيتهم وطرق حياتهم ما يلائم الطريق  
 الذى سيستأنفونه وما أمامهم من المغامرة في السيادة على  
 شعوب العالم بقدر ما يستطيعون . فلم يكن لائقاً بمن هم  
 عتيدون لمثل ذلك أن يقبعوا في بلدهم ، ولا يعرفوا العالم ،  
 ولا تميل نفوسهم الى خيرات السماء والارض الفائضة في  
 ملك الله الواسع . بل اللائق بهؤلاء أن يكون كل واحد  
 منهم متمثلاً بقول ذلك الشاعر من أبناء ملوك العرب  
 « امرؤ القيس » :

(١) المديقة تصغير مدقة ، وهى فريضة من اللبن المزوج بماء كثير

فلو أن ما تسعى لأدنى معيشة كفاني ولم أطلب قليل من الماء  
ولكنما أسمى لأدنى معيشة وقد يدرك المجد المؤئل أمثالي  
وحقا كانت حال القرشيين ناطقة بمثل هذا الكلام ، وكل  
منهم له في المجد أرب ، فلا بدع إذا انصرف الغالبية الى  
تحصيل المال ، فانه أعظم وسيلة لتحقيق هذا الهدف .  
وقد نجح فيه منهم كثيرون ونفعوا بالغنى قومهم عند  
الشدة ، منهم عبدالله بن جدعان الشهير بجفنته التي كان  
يقدمها للفقراء والمساكين من زوار مكة وأهلها ، وقد أمد  
قومه بالسلاح في حرب حاربوها ، وسلح مائة كمي من غير  
قومه ممن حارب معهم . وفي هذه الحرب قتل أحد أخوة  
السيدة «خديجة» العوام أبو الزبير (١) ومنهم أمية بن  
خلف بن وهب وابنه صفوان الذي أثر عن النبي (ص) أنه  
قال فيه : « ان صفوان بن أمية قنطر في الجاهلية وقنطر  
أبوه » أي بلغ ماله القناطير (٢) وكثيرون غير هؤلاء  
فيالله ما أشبه قريشا الضاربين في أغوار رمال العرب  
وانجادها لنقل المتاع من هذه البرية واليهما على مراكبهم  
سفن البر ، بالفينقيين الضاربين في أكباد تلك البلاد  
وأطرافها لنقل البضائع من هذا الثغر الى ذاك على  
مراكبهم سفن البحر . فلئن كان لابناء تلك السواحل  
رحلتا شتاء وصيف بين زئير الامواج ، ومعاركة الامواه ،  
فلأبناء هذه البرارى أيضا رحلتا شتاء وصيف بين عواء  
السباع ، ومعالجة الرمال

(١) محاربين في هذه الحرب ، قريش وهوازن ، وكان ممر النبي  
«ص» فيها أربعة عشر عامسا ، وحضرها مع أمهاته يهوى لهم  
النبل ، وعبد الله بن جدعان مري شهير ومثر كبير وهو من فخذ بني  
جميع  
(٢) أمية وهو من فخذ بني جميع أيضا وقد قتل في وقعة بدر ، وكان  
مع أمهات النبي «ص» اما ابنه صفوان فأسلم بعد فتح مكة ، وكان  
من المؤلفة قلوبهم ١٧

لعمري الحق قد أدرك القوم أن الخير كل الخير لأنفسهم ولجيرانهم ، أن يخفوا للتجارة لأنها في الأمم أقوى الأسباب الداعية إلى القوة والرفعة ، المبعدة عن الحياة الشقية البائسة ، فنشطوا في الأعمال التجارية غير كسالى ، فكان لذلك ربهم منها عظيما ومن ملكة الاختلاط بالاقوام في ذلك العصر السحيق والمكان البعيد . وكان بلدهم - على هذا البعد عن العمران - وسطا صالحا للتجارة في تلك البرية عن طريق الحج الذي كانت تقوم به العرب إلى البيت المكرم القائم فيها ، وجدير ببلدة يحج إليها العرب ذلك الحج أن تكون للامن دارا ، وإنما تزدهر التجارة في رياض الامن

### أسواق مؤقتة

وكانوا يقيمون من حولها أسواقا مؤقتة كل عام قبيل أيام الحج ويفدون إليها لبيعوا ويشترى . أشهرها سوق عكاظ التي كانت تعقد في أول يوم من ذي القعدة و « عكاظ » بين مكة والطائف . ومن أسواقهم هذه « ذو المجاز » وهو عند عرفات و « منة » وهي موضع جنوب مكة و « بدر » وهي بين مكة والمدينة . ولقد كان لسوق عكاظ من خطر الشأن أن النعمان ابن المنذر ملك الحيرة على اتصاله ببلاد الحضارة وبعده عن مكة كان يبعث كل عام إلى سوق عكاظ جمالا محملة سلعا وطوبىا لتباع في هذه السوق ، ويشترى له بثمنها من آدم الطائف (١) ما يحتاج إليه ولم يكن يرسلها في هذا الطريق البعيد الذي تمر فيه على قبائل شتى حتى ينجسها له شريف من شرفاء العرب وهذا يدلنا على أن تلك البلاد لم تكن تأتي بالحاصلات

(١) آدم بضمعين وقتحتين الجلود المدبوغة والواحد آدم

من البلاد الاخرى فقط - بواسطة التجارة - بل كانت تخرج الى غيرها حاصلاتها أيضا . ومع أن الشام مشهورة بأعنائها وفواكهها كان تجار مكة يأخذون اليها من زبيب الطائف الذي ادهش حصنه وكثرته سليمان بن عبد الملك لما رأى بيادره فقال : لله در قيس فى أى عش أودع فراخه : يريد بقيس ثقيفا فكذلك كان اسمه ، وحسبك أن النعمان بن المنذر كان يرسل يأخذ من أدمها فتجار مكة لم يكونوا يذهبون فارغى الاحمال الى الشام ، والى غيرها أحيانا ، بل كانوا يذهبون ببضاعة حجازية مما تخرج تلك الارض من نبات ومعادن ويرجعون ببضاعة شامية أو غيرها مما تخرج الارض وتصنع الايدى . وآخرون مقيمون غير ظاعنين ليقيموا السوق الدائمة فى تلك البلدة . « أم القرى »

\*\*\*

ولعله يهم القارئ أن يعلم ماذا كانت تخرج تلك الديار الى غيرها من الأشياء فانه كلما تصورنا غير زراعية وغير صناعية يضيق ذهنه عن معرفة ما يصلح أن يخرج منها ، وله العذر فى ذلك . أما نحن فنذهب حيرته ببيان وجيز لا يسعنا أكثر منه لئلا ينقطع الحديث فنقول ان تلك البلاد فى ذاتها رأس مال طبيعى كبساتير البلاد . . ذلك بما تشتمل عليه من معادن ونباتات برية يصلح بعضها للصباغة وبعضها للدباغة ، وبعضها للطب ، وبعضها للطيب ، وبعضها للتنظيف . . فإذا أضفت الى ما كانوا يجففونه من البان الحيوانات وما يستخرجونه منها من الزبد ومن أصوافها وأوبارها وجلودها وما كانوا يجففون من التمر والزبيب وغيرها تجد بضاعة غير يسيرة يحمل مثلها الى اطراف بلاد الشام مما هو الى الحجاز أقرب بل ربما راج بعضه فى العواصم

نحن اليوم لانتصور مجتمعا حضريا الا بأن يكون فيه أمير مسيطر وجند له حافظون ، وزراع وصناع وتجار للمعاش ضامنون ، وقد رأى القارىء أن مجتمع «خديجة» قام بغير مسيطر وبدون جند له . . فعسى الا يقيس على استغنائاه عن سيطرة الأمير استغناؤه عن الزراعة والصناعة والتجارة . كلا فان هذه الثلاث لا قوام تقوم بدونها . ونحن اذا ذكرنا ما كان من نصيب قوم « خديجة » منها لا نقصد به عد مفاخر لهم الا من جهة انهم تغلبوا بمداركهم وهم مهم على كل ما كان يحول بينهم وبين السعى الى ادراك شأو الأمم والابتعاد عن البداوة ، بعد أن أوشك جوار البادية أن يجذبهم اليها كما جذب اخوانهم الآخرين

### الصناعة والتجارة

فهم تحضروا فى ذلك البلد بين أهل البادية ، وفى عزلة عن العمران وأعطوا الحضارة حقها على صعوبة الوفاء لها بهذا الحق . وتراهم مع هذا لم يخالفوا سنن العرب فيما يأنفون منه ويترفعون عنه ، فأقاموا ما احتاجوا اليه من الصناعة فى بلدهم ولكن على أيدي عبيدهم ، لان العرب كانت تأنف من بعض أنواع الصناعة ، وكذلك استصلحوا ما احتاجوا اليه من الاراضى الزراعية ، على أيدي عبيدهم . ولم تكن الاراضى الزراعية كثيرة فى بلدهم ولكن لم يكن خاليا منها البتة ، فهناك أودية يجود فيها الزرع والفرس وتجرى فيها العيون . وما الطائف عنهم ببعيد وهو أبو الزراعة

أما التجارة فلم تكن العرب تأنف منها ، لذلك بأشرها القوم بأنفسهم كما بأشر بعضهم بعض الصناعات التى ماكانوا يأنفون منها . فمنهم من كان يبيع اللباس . ومنهم من كان يبيع الادهان . ومنهم من يبيع اللحم . ومنهم من يبيع الاداة



والماعون والسلاح . ومنهم من يبيع الرقيق خاصة .  
وبالجملة كان فيهم باعة لكل الاشياء التى تدور عليها حاجة  
الانسان المتحضر من صنوف الاكسية المعتادة . وضروب  
الاطعمة والاشربة المعهودة . وصنوف الماعون والاداة اللازمة .  
والعقاقير المعروفة والحيوانات المتداولة والاسلحة الشائعة .  
ولم تكن سوقهم تلك خالية من السماسرة ، ويقال ان عمر  
ابن الخطاب الخليفة الثانى الشهير كان بزازا ويقال انه  
كان سمسارا كما ان ابا بكر الخليفة الاول كان بزازا (رضى  
الله عنهما )

ومهما كان ذاك المجتمع اقل تشبها بالزخرف وابتعد عن  
التسابق الى المتاع الزائد عن الحاجة نرى ان حاجاته التى  
يستلزمها عملهم كتجار لم تكن قليلة ، ونرى انها وحدها كافية  
لان يكسب بعضهم بواسطتها كثيرا من المال ، فالتجارة ولا  
شك السبب الاول فى ثراء قريش وكثرة الاثرياء منهم  
لأننا لم نعهد لهم الى ذلك العهد وجها من وجوه الربح  
المال اعظم منها

وأصناف الاموال التى كان الثراء بها عندهم هى الذهب  
والفضة والابل والرقيق ، والاراضى للزرع والغرس ،  
والاراضى لاستخراج المعادن

اما الذهب والفضة فهما الواسطة الاولى فى تبادل  
العروض والاعيان . ومن مطالعة اخبار القوم يظهر انه كان  
لديهم منها شئ كثير . من شواهد ذلك قول النجم (ص)  
« ان صفوان بن أمية قنطر فى الجاهلية وقنطر أبوه » ومن  
شواهد ذلك انه بعد أن ظهر الاسلام وانقسموا قسمين  
أحدهما مع النبى ( ص ) فى دار هجرته ( المدينة ) والآخر  
عدو له فى وطنه « مكة » أدت العداوة بينهما الى اشتعال  
حرب بين الفريقين فى الموقع المسمى ببدر بين مكة والمدينة  
فيكان الظفر لأصحاب النبى ( ص ) ووقع فى أيديهم من

عشيرتهم سبعون أسيرا افتدوا أنفسهم ووزنوا في فدية الواحد أربعة آلاف درهم فتكون الجملة نحو مائتين وثمانين ألف درهم أى نحو عشرين قنطارا مصريا من الفضة ولم يحدث في ذلك البلد الصغير أقل ضيق من هذا المقدار الذى وزن أهل كل أسير منه ما عليه . وما هو بالمقدار الكبير ولكنه يدل بالجملة على وفرة هذه الدراهم وتيسرها عند القوم ، ومنها ما ورد من أنهم انفقوا على حرب النبی في « أحد » ربح العير التى جاء بها أبوسفیان من الشام وقدره خمسون ألف دينار

وكانت النقود التى يتداولونها من ضرب الروم غالبا وبعضها كسروى ، ولكن لم يكونوا يتداولونها إلا بالوزن . ولعل ذلك لعدم اتقان ضربها على وثيرة واحدة ، وقد ظلت النقود الاجنبية الى أيام عبد الملك بن مروان فهو الذى استحدث النقود المكتوب عليها بالعربية

وأما الابل فهى أوفر اصناف الثروة ، والابل مال كثير البركة لصاحبه فالقليل منها فيه الفنى والفناء ، والنعمة والهناء . من درهما الفداء ، ومن أوبارها الكساء ، ومن جلودها الماعون والحذاء ، ومن يعرها الوقود للطبخ وكشف الظلماء . وظهورها مراكب للظعن والحمل والنجاء (١) وبطنها أعظم بها واسطة للنماء . فبعيشك أيها القارىء؛ فى أى مورد من موارد الثروة المعاصرة يجد احدا مثل هذه البركة ، التى لا تحتاج إلى شىء عظيم من الحركة ؟

وأما الرقيق فقد كان في ذلك العهد يعد مالا في جميع جهات الأرض وكان هؤلاء القوم من أغنى الناس في الرقيق وإذا صرفنا النظر عن استهجان هذه العادة نرى أن لاشئ انفع من عمل «الإلة» المتحركة بنفسها ، النامية بطبيعتها ، المدركة بعقلها

(١) النجاء : الهرب

وأما الأراضي للزراع والفرس فكان بين العرب أفراد يملكون منها كثيرا ، ومن أثرياء قريش من كان يملك أراضي في الطائف كعتبة وشيبة ابني ربيعة « من فخذ بني عبد شمس » وغيرهما

وكان تقدير القوم للزراع والضرع أعظم من تقديرهم للذهب والفضة ، فقد سئل بعضهم عن الذهب والفضة فقال « حجران يصطكان ان أقيمت عليهما نغدا ، وان تركتهما لم يزيدا ، ان أفضل المال برة سمراء في تربة غبراء ، أو عين خراة ، في أرض خؤارة ، أشار بهذه الكلمات القليلة الى ان الموجب لنماء الثروة هو العمل في استخراج الخيرات الطبيعية من الارض التي هي أول رأس مال . أما الذهب والفضة المتداولان فواسطة لتنظيم حركات دولااب الاعمال فقط . وهذا هو الاساس الصحيح لاقتصاد الامم

وأما الأراضي الغنية بالمعادن ، فالظاهر ان بعضها كان مشاعا وبعضها كان مملوكا . أما كون بعضها مشاعا فنأخذه من عادة العرب في جاهليتهم من أنهم لم يكونوا خاضعين لمثل سنن البلاد التي فيها ملوك . والمعادن انما يجعل لها حرم وحرماء الملوك الذين يعدونها من جملة الاموال العامة التي هي حق للخزانة العامة ، خزانة المملكة . وأما كون بعضها كان مملوكا فنستخلصه مما قرأناه عن ملك بعضهم لبعضها كالحجاج بن علاط السلمي (١) الذي كان يملك معادن بني سليم . وكانهم لشيوع ملك بعض الناس لبعض المعادن كان من الناس من يطلب من النبي بعد الفتوح أن يقطعه

(١) الحجاج بن علاط ليس بقريش . بل هو من بني سليم ، ولكنه كان متزوجا من قريش أو من بني عبد الدار وهبط خديجة ، وكانت امواله تستثمر في مكة ، وكان مكثرا من المال ، أسلم يوم فتح خيبر ، ثم جاء الى النبي «ص» فقال له « ان لي ذهبا عند امرأتى في مكة وان تعلم هي باسلامي فلا مال لي ، فأنزلني لاسرع السير واخبر اخبارا اذا قدمت أدرا بها من مالي ونفسي » فأنزل له النبي « ص » وقدم مكة وأخذ امواله بحيلة

شيئا منها فقد طلب بلال بن الحارث أن يقطعه معادن القبيلة (منسوبة الى قبل بفتحيتين) وهي ناحية من ساحل البحر بينها وبين المدينة خمسة أيام فأقطعه اياها وأقطعه جبل قدس (١) للزرع

هذه هي موارد الثروة التي كان بها ثراء هؤلاء القوم ، يضاف اليها العروض والامتعة التي كانت تتداول في التجارة ، والى مثلها يثول اليوم كل ثراء ، فان امتلاك الارض والمعادن لا يزال أيضا ينبوعا فياضا للثروة . واستخدام الفعلة بأجر بخس نوع من الاستعباد والاسترقاق . والنقود لا تزال كثرتها وقلتها أيضا معيارا عظيما لثروة الامم . وعلى مقدار ما تقدم كله يكون محور التداول للعروض والامتعة والاثاث والرياش

وقد كان من لا يستطيع ان يباشر التجارة بنفسه أو السفر من أجلها يعطى من ماله الى آخر على ان يتجر به ويكون الربح بينهما ، أو يعطيه بالربا - وكان شائعا بينهم - أو يستأجر آخر ليقوم له بتجارته ، والامانة هي الغالبة فلم يكن بأس على المال بتسليمه الى من يتجر به بالمؤاجرة أو المضاربة فلذلك لم تصعب التجارة على السيدة « خديجة » التي كان لها ما لنساء قومها من الاستقلال في أموالهن : ولم يكن لايها ولا اخوتها سلطان على ذلك المال الذي كانت تبعت به للتجارة مع ذوي الامانة ذاهبا وآيبا وفي اثار هذه السيدة ارسال أموالها في التجارة على الاتجار بالنقود في مكة كما يفعل المرابون ذلالة على بعد نظرها وعلو هممتها وعظمتها وعظمتها وحنانها على وطنها فان الاوطان تسمو باقدام ارباب أموالها على نشر اسمها في العالم بالبيع والشراء واطهار صنوف الثراء . ولا يكون لها مثل ذلك بشيوع المتاجرة بالنقود

(١) جبل قدس معروف في جوار المدينة

## الفصل التاسع

### زواجها قبل النبي



## قصة الزواج

تزوجت خديجة قبل النبي ( صلى الله عليه وسلم ) مرتين  
تزوجت أبا هالة النباش بن زرارة وتزوجت عتيق بن عابد  
المخزومي . وكان الزواج المرضى في الجاهلية كالزواج في  
الاسلام أي ان الرجل يخطب الى الرجل بنته أو من له  
عليها ولاية ويقدم صداقها فيزوجه . وأما ما يذكر من أنواع  
أنكحة الجاهلية الأخرى فهو من باب السفاح لامن باب  
الزواج المرضى . ولم يكن السفاح والمخادنة من فعل  
الشرائف والكرائم ، وإنما يفعل ذلك الاماء والحقائر.

وولدت هذه السيدة ولدا من أبي هالة وسمته «هندا»  
على عادة العرب ، اذ كانوا يلقبون الذكور أحيانا بأسماء  
الاناث ، فهند هذا هو ربيب النبي ( صلى الله عليه وسلم )  
أخو فاطمة لأمها عليهما السلام ، وقد عاش وأدرك الاسلام  
وأسلم . روى عنه ابن أخته الحسن بن علي حديث وصف  
النبي ( صلى الله عليه وسلم ) المشهور في السمائل وكان  
هند وصافا ، وحديثه هذا أبلغ ما وصف به النبي ( صلى  
الله عليه وسلم ) وقد قتل هند مع علي يوم الجمل

سيعجب القارىء من زيادة تعريفنا لابنها هذا ونحن  
لا نكتمه السبب ، وذلك أننا نحب الاندع شيئا مما يتعلق  
بسيرة هذه السيدة مغفلا ومهملا ، ولا سيما بعد أن رأينا  
أكثر الذين كتبوا في سيرتها لم يتعرضوا لذكر ولدها هذا  
فكاد يضيع ويخفى الا على المنقبين في بطون الاسفار الواسعة  
وعذرهم في ذلك أنهم إنما يتعرضون لسيرة هذه الفاضلة

على الغالب منذ تشرّفها بزواج النّبي ( صلى الله عليه وسلم )  
وان لنا - والحق يقال - حقاً على هؤلاء الناس الذين  
يريدون أن يعرفونا بسيرة أحد الأشخاص ، فيمكنون  
أنفسنا بالشئ من أخباره ثم يقطعونه ويجذبونها الى  
شئ آخر

على أنني لا أنكر أنه اذا سطعت الشمس لا يبقى تبصيص  
السراج مكان ، فمن ذا الذي يعلم أن هذه السيدة اتصلت  
بشمس الهدى « محمد » صلى الله عليه وسلم وولدت منه  
« فاطمة الزهراء » أم الحسين ثم يرجع باحثاً عن ابنها  
ذاك من زوجها الأول أبى هالة ؟

لعمرك اذا وصلت بسيرتها الى هذا المقام ، تضاءلت أمام  
نظرك كل ما تسمع عن أيامها الماضية واستشرفت نفسك  
الى الاطلاع على هذا الشأن الجديد الذي سيكون لهذه  
السيدة مع هذا الزوج الكريم الذي رن الكون كله باسمه  
الشريف

فمن هنا بدء الحياة العليا لهذه السيدة ، ومن هنا بدء  
خلود اسمها في لوح الوجود ، وبدء اشراق مواهبها في سماء  
السعود ، أمامها الآن الشمس بلا حاجز ، فليستمد  
منه جوهرها ، وليفيض نوراً وسناء ، وليتبارك كمالاتها  
وبهاء . .



## الفصل العاشر

محمد عليه الصلاة والسلام  
قبل زواج خديجة



وإذا العناية صاحبت مرءاً فلاً  
تكثر سؤالك فيه كيف ولم وما  
ودع التردد ان أتاك حديثه  
مهما حوى مهما نما مهما سما

لا تسأل كيف أبدع الانسان ، من أبدع الكواكب ، من  
خلق موادها ، وقدر مدارات لحركاتها ، ونظماً لتقابلها ،  
وانشأ منهن المقسمات ليلنا ونهارنا ، المدبرات صيفنا  
وشتاءنا ، الناطمات فى احشائها شملنا ، الماديات بنسائهن  
نسماتنا ، وبأرواحهن كياننا ، ولا تسأل لم خلق لنا الأرض  
جميعاً نشرح احشائها ، ونقطع اوصالها ، ونستخرج  
أفلاذها ، قد حصرناها على عظمها فى يدنا ، وحشرنا كل  
ما فيها فى ذرات صغيرة من دماغنا ، ان شئنا نرفع من  
شأنها بما نركب من أجزائها ، فيأتى منها من البدائع  
ما يدهش ألبابنا ، ويسحر أبصارنا ، وان شئنا لم نعبأ  
بها ، واستشرفت نفوسنا الى غيرها ، فاطلعنا الى ميجانيزم  
الارواح ومواردها ، ومشارك الاسرار ومغاربها ، وإزفغنا  
الى ينابيع الاكوان ومظاهرها ، وتلمسنا ثمة حياة لا نحتاج  
فيها الى ماء الأرض وهوائها ، وثرابها وتارها

ولا تسأل كيف تقاربت صورنا معشر الانس وتباعدت  
حقائقنا ، ولم طالت آمالنا واعمالنا ، وقصرت آجالنا  
واعمارنا ، ولم جشعت نفوسنا بتكثر الصور ثم شغفت  
كل نفس بأنواع منها ، واختلفنا فى تمييزها وترجيح  
بعضها على بعض ، وتدابرننا فى مناهج طلابها ، وتقاطعنا فى  
سبيل اكتسابها ، ولم هذا البون فى انصبتنا ، والفرق فى

مرامينا ، والبعد في مدارجنا ، والغبن في معارجنا ؟  
ولماذا منا اناس مع الكواكب مداركهم سابعة في افلاك  
الحقائق ، وبروج الرقائق والدقائق ، ومع الانوار سيرهم  
منتشرة في سابق الدهور ولاحقها ، وبأدى الشعور  
وحاضرها ، وآخرون مع الديدان مشاعرهم دابة بين أوراق  
الاجام واحطابها ، أو تحت دخان القفار ونقعها ، ومع  
العصفصورهم منطوية في احشاء الاواكل ، ومندرجة في  
الواخر مع اخوانهم الاوائل ؟

لا تسأل عن هذا كله ان كانت نفسك قد وقفت عند  
مطمائنها من معرفة الأكوان والموجودات ، البأدى خط  
جلالها وجمالها على لوح الآيات البينات ، من الاشكال  
والتنوعات ، ( ومن آياته ان خلقكم من تراب ثم اذا  
انتم بشر تنتشرون \* ) ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم  
ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان في  
ذلك لآيات لقوم يتفكرون \* ) ومن آياته خلق السموات  
والارض واختلاف السنتكم واللوانكم ان في ذلك لآيات  
للعالمين \* ) ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغائكم  
من فضله ان في ذلك لآيات لقوم يسمعون \* ) ومن آياته  
يريككم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيى  
به الارض بعد موتها ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون \* )  
ومن آياته ان تقوم السماء والارض بأمره ثم اذا دعاكم  
دعوة من الأرض اذا انتم تخرجون )

اذا وقفت نفسك عند هذا المظان من المعرفة فلعلها تصل  
بك الى معرفة ان ذا الحياة الازلية ذو حكمة ليس في وسع  
استعدادنا ان نحيط بأسرارها خبرا مهما حامت حولها  
آمال مداركنا ، ومهما طافت في مجال قدسها صوافي  
مراثنا . . فأخلقنا نحن ان يتذكر في هذه المسابح الفكرية  
عجز عقولنا عن ان تصل بنا الى ما دون هذا السر

الاعظم ، ووقوعها بنا في كثير من اشراك الالهة في الموجودات التي هي تحت حسننا ، وفي جوار أجسامنا ونفوسنا وعسى أن ترقى بك هذه المعرفة الى التسليم بأن هذا الحى الأزلى الحكيم ذو عناية ربانية لا يحاسب على ما يختص بها ممن يشاء فله الأمر كله فيما يبدىء ويصور . وله الحكمة فيما يتنوع ويميز . . منه كل شئ واليه المآب وان كنت في ريب من الحكمة الأزلية والعناية السرمدية فدع نفسك واقفة ماشاءت في ظلمة الالحاد ، أو دائرة في سجن الشك ، أو طائفة في جو اللوم لا قرار لها . . وانما تحكى هنا للذين هم يربهم يؤمنون

### الوليد المبارك

سبق في العناية الأزلية أن تكون هداية شعوب كثيرة الى اقوم سبل الحياة على يد رجل من العرب يرتفع به اسمهم في العالمين . وكان هذا الشرف الذى أعده الله للعرب ، اعظم نصيب لعبد المطلب الذى أخرج الله انسان هذه الهداية من أولاده

كان عبد المطلب (١) من كبار اشراف قريش ورزق عشرة اولاد من الذكور ، وكان ابنه عبد الله أحبهم اليه ، فزوجه شريفة من شرائف قريش من بنى زهرة تدعى آمنة فحملت منه ، وقبل أن تضع حملها توفى ، فلما وضعت كفل وليدها

---

(١) اسم عبد المطلب شعبة وتسميته بعبد المطلب حكاية ، وهى ان أباه هاشما كان قد تزوج أمه من بنى النجار في يثرب « المدينة » فلما ولدته تركه عندها حتى كبر ، وكان هاشم تاجرا فخرج بتجارة الى الشام فمات في « غزة » فذهب اخوه المطلب بن عبد مناف ليأتى بابن أخيه ، فأبته والدته ان تعطيه أباه حتى أقنعها بأن أقامته في بلدته وبين قومه وعشيرته خير له ، ولما جاء به كان مردفه خلفه على بعير فظنت قريش انه عبد ابتاعه ، فقال لها عبد المطلب ، وقال لهم المطلب ويحكم انما هو ابن أخى هاشم قدمت به من المدينة ، ولكن ذاعت كلمة عبد المطلب فاشتهر بهما وصارت كأنها علم له

جده وكان هذا الوليد المبارك « محمداً » صاحب القرآن  
فما أسعدك يا عبد المطلب ، اكننت تدري وانت على أبواب  
أبرهة الحبشى تطلب منه رد ذلك القليل من الأبل الذي لك  
مما استاقه من ابل مكة أن سيولد لك في هذا العام حفيد  
تنشئ أعناق الملوك في الأجيال المقبلة خاضعة لذكره ؟

اكننت تفكر اذ قصارى أملك الاحتفاظ بمكانتك بين قومك  
المنقطعين في تلك البرية ان اسمك ستردده المحافل في  
الامصار النائية والشعوب المختلفة على مدى عصور كثيرة  
كلما ذكر نسب حفيدك العظيم الذى هيئه الله لرسالة يتبعه  
من أجلها العالم ، ويبقى ذكره فيهم الى الابد ؟  
أخطر على قلبك أن بلدك المقدس الذى لم يكن يحج اليه  
الا العرب ستحج اليه كل شعوب الارض لما جاءهم به  
حفيدك من الهداية ؟

أجاء في خلدك أن كنتك آمنة الزهرية انما ولدت من  
يشرف الله به قومك ويجمع به كلمتهم ، ويعلى سلطانهم  
وينشر لغتهم ، ويقيم لهم مجدا مع الدهر مذكورا ، وفي  
كتاب العالم مسطورا ؟

هل كنت ملهما اذ سميته محمدا ؟ وكنت على رجاء كبير  
بأن يقيم له العالمون تحميذا لا ينقطع ، وتمجيذا لا يزول ؟  
أعرفت أنك بحفظك هذا اليتيم وكفالتك إياه وعنايتك  
به انما كنت تحفظ للعالم كله التحفة التى آتاهم الله من  
كرمه ، والوديعة القدسية التى اختص الله بيتك لظهورها،  
وقومك لانتشار مبدأ نورها ؟

فأنت بما أوتيت من هذه السعادة الخالدة جدير أيها  
المختص بعناية الحى الأزلى . . فليذم ذكرك جمالا للمحافل  
واسمك ساميا مع اسم حفيدك نبي الشعوب وبركة العالم  
كانت ولادة محمد في القرن السادس من ميلاد المسيح  
عليهما الصلاة والسلام ، أى حوالى سنة سبعين وخمسمائة

منه ، وحوالى السنة الثامنة والاربعين من ملك كسرى انوشروان ولم يكن قومه يعرفون سننى الامم وتواريخها ولا سننى انفسهم ، وانما كانوا يحفظون الاعمار ويؤقتون آجال الاشياء بالوقائع الشهيرة والحوادث العظيمة ، كما هو شأن الاميين الى عهدنا

ولد عام الفيل وهى سنة اشتهرت بهذا الاسم لوقوع حادثة فيها ، مشهورة عندهم ، تدور حول حرن فيل القائد النجاشى وامتناعه عن السير نحو مكة . . لذلك سميت بهذا الاسم . . وحادثة الفيل يصح أن نقول انها من التاريخ المقدس عند المسلمين ، اذ ذكرت فى القرآن . . ولكن على أسلوبه فى القصص التى تذكر لاجل العبرة فقط لا ، على أسلوب المؤرخين ونقله الاخبار

وقد اعطى لمرضعة ، على عادة قريش فى اعطائهم الاولاد للمراضع ، من القبائل النازلة قرب مكة ابتغاء أن تتربى أجسامهم فى البادية حيث الارض النظيفة قد كسيت من الازهار أبدع النمازق الطبيعية ، والنسائم تحمل عبرها الى النفوس رائحة وغادية

### التحفة السنية

اذا بزغ النهار ارسل الى افئدة اهل النشاط والهمة روحا مبشرا بطيب عقبي العمل ، وسوء منقلب الكسل ، وكان بينه وبين سكان البرارى وساسة الانعام عهدا الا يقبل بطلعته الباسمة الا وهم مستقبلوه بالتحيات الطيبات من مباسم اهمهم ، وثغور اجتهادهم ، ورافعون اليه آيات الشكر على ماله من الايادى البيضاء فى اخضرار عيشهم ، وابيضاض وجوه آمالهم

بزغ الفجر يوما على نسمتين فى أباطح تهامة قد اسفر عليهما البشر ونفدت الغبطة من أعماق جوانحهما الى أسارير وجهيهما ، ولم يكن ذلك الانس والبشر لما حولهما من مجالى

عرائس الطبيعة لأن السماء كانت شحيحة عليهم تلك السنة فلم تترع حياضهم ، ولم تزدهر رياضهم — ولو لم يصرن الوادى لهم القليل مما اغيشوا به مرة لقتلهم الظمأ — ولا لما حولهما من وافر الرزق وسابغ النعم ، لأنهما لم يكونا يملكان الا غنيمات قد جارت عليها السنة ، وقتلها الجهد والجذب .. ولكن كان ذلك السرور لنعمة جديدة حلت بهما فملاتهما فرحا ، واشبعتهما ابتهاجا ، ولم يكونا يكفان عن هذا الحديث الذى كانا يتفقدان به صباح مساء ، ويجددان به شكرا على هذه النعماء ، وهذا ماكانا يتحدثان به :

— حقا يا حليلة انك قد جئتنا بتحفة سنية ونسمة مباركة

— أى والله يا حارث وانظر ما أجمله ، انظر الى هذه الاشجار الهدب ، انظر الى هذه العيون الدعج ، انظر الى هذا الجبين الأزهر ، انظر ما أبهى انعكاس هذا الضياء المقل من الشرق على مرآة هذا الجبين

كان هذا الحديث يجرى بين امرأة وزوجها من قبيلة بنى سعد صبيحة يوم ، وكانا قبله فى مكة ، وكانت هذه المرأة هى التى جاءت بحفيد عبد المطلب لترضعه وقد تحدثت بنفسها كيف جاءت به ، وكيف رأت من بركته ، قالت :

— خرجت مع زوجى وابن لى صغير على اتان لى قمرأ (١) معنا شارف (٢) لنا والله ما تبض بقطرة ، وما ننام لينا أجمع من صبينا الذى معنا من بكائه من الجوع ، ما فى لى

---

(١) القمر بالضم لون الى الخضرة او بياض فيه كدرة . حمار اقرع  
واتان قمرأ  
(٢) الشارف الناقة المسنة



ما يغنيه ، وما في شارفنا ما يغذيه ، ولكننا نرجو الغيث والفرج ، فخرجت على اتاني تلك فلقد اذمت (١) بالركب ضعفا وعجفا حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء فما منا امرأة الا وقد عرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأباه اذا قيل لها ائت يتيما ، وذلك اننا كنا نرجو المعروف من ابي الصبي فكنا نقول يتيما وما عسى أن تصنع أمه وجده ؟ فكنا نكرهه لذلك ، فما بقيت امرأة قدمت معي الا اخذت رضيعا غري ، فلما هممنا بالانطلاق قلت لصاحبي : « والله اني لاكره أن أرجع بين صواحي ولم آخذ رضيعا ، والله لاذهبن الى ذلك اليتيم فلاخذنه » قال : « لا عليك أن تفعل عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة » قالت : « فذهبت اليه فأخذته ، وما حملني على أخذه الا اني لم أجد غيره » قالت : « فلما أخذته رجعت به الى رحلي ، فلما وضعته في حجرى أقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن ، فشرب حتى روى وشرب معه أخوه حتى روى ثم ناما وما كنا ننام معه قبل ذلك ، وقام زوجي الى شارفنا تلك ، فاذا بها حافل (٢) فحلب منها ما شرب وشربت معه حتى انتهينا ريا وشبعا ، فبتنا بخير ليلة . قالت : يقول صاحبي حين أصبحنا تعلمين والله يا حليلة لقد أخذت نسمة مباركة ، قالت : فقلت والله اني لأرجو ذلك . . قالت : ثم خرجنا وركبت اتاني وحملته عليها معي فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شيء من حميرهم حتى أن صواحي

(١) اذمت بالركب أى حبستهم لانقطاع سيرها من عجنها أى هزالها وضعفها ، واذنت الركاب تأخرت من الكلال وأصله أنت ما تدم عليه (٢) حافل كثيرة اللبن

ليقلن لى « يا ابنة ابنى ذؤيب ويحك اربعى عليها(١) اليس  
هذه ائناك التى كنت خرجت عليها ؟ » فأقول لهن : « بلى  
والله انها لهى . . والله ان لها لسانا »

قالت : ثم قدمنا منازلنا من بلاد بنى سعد ، وما اعلم  
ارضا من ارض الله اجذب منها فكانت غنمى تروح على  
حين قدمنا به معنا شبعا لبنا فنحلب ونشرب وما يحلب  
انسان قطرة لبن ولا يجدها فى ضرع ، حتى كان الحاضرون  
من قومنا يقولون لرعاتهم : ويلكم ، اسرحوا حيث يسرح  
راعى بنت ابنى ذؤيب . فتروح اغنامهم جياعا ما تبض  
بقطرة لبن ، وتروح غنمى شبعا لبنا ، فلم نزل نتلقى من  
الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفطمته ، وكان  
يشب شبابا لا يشبه الغلمان »

فيا لك من سعيده يا حليلة ، اذ كتب لك ارضاع اليتيم  
الذى تربيته العناية الالهية ، ولم يكشف لك من آثارها الا  
هذه البركة التى ملأت بيتك ، وويلكن أيتها المرضعات  
الغبيات المعرضات عن اليتيم التماسا للرضع الذين لهم  
آباء . لقد فاتكن الحظ وما الحظوظ بالاختيار ، وعزاء  
لكم ايها اليتامى فقد عاش محمد العظيم يتيما

### فى دور الطفولة

بعد أن ربي « محمد » (ص) فى بنى سعد عند السعيدة  
حليلة ، جرى به الى أمه ، فلذهبت به وهو ممتلىء قوة ،  
وهو ابن ست سنين الى المدينة ليزور أخواله من بنى عبدى  
ابن النجار وفى عودتها الى مكة توفيت فى مكان يسمى  
الأبواء . وكان عبد المطلب شديد العناية بحفيده ويتوسم  
فيه علو الشأن فلما بلغ الثامنة من عمره ودعه مفارقا  
هذه الدار ، وأودعه للعناية الالهية التى تقترن بمنابع

---

(١) اربعى أى ارفقى واقتصرى

الخير والبر ، والبركات ، ونوافح الرأفة والحنان ،  
وقام مقامه ابنه أبو طالب شقيق عبد الله أبي النبي (ص)  
فأدخله في آل بيته وتعهد تربيته وثقيفه

وكان أبو طالب ذكيا ، شهما ، صادق المروءة ، ماضي  
العزيمة ، محبا للعدل والانصاف . عرفنا كل ذلك فيه  
من تكليفه نفسه أقصى ما يمكن أن تكلف النفس في حماية  
ابن أخيه لما قام بالدعوة ، ومن مواقفه أمام قريش في  
نصرته ، والدود عنه . وقد خلف أبو طالب أباه عبدالمطلب  
في المقام السامي بين قومه ، فكان ابن عبد الله يتنقل في  
بروج العز والسؤدد والسعادة في آفاق الشرف الهاشمي  
وتنطبع في جوهره الكريم صور البر والعدل والاحسان  
على مثال الخلال الشريفة التي كان يتحلى بها ذلك الرجل  
السامي التربية « أبو طالب »

### الرعاية البدنية

لقد رأينا من آثار العناية الازلية بذلك اليتيم العزيز  
ما يصح القول معها انه كان مستغنيا عن تربية أحد ،  
ولكن لماذا لا نقول ان أعداد ذلك العم الفاضل لتربيته  
في الصغر كان من جملة آثار العناية الفائقة به (١)

اما رعايته البدنية لله ، فقد كانت على غاية ما يتصور  
علماء الصحة ، ولذلك كان من آثارها قوة جسدية لهذا  
المبارك لا نظير لها ، وصار على صورة من الجمال كانت  
تجعل الذين يرونه يقولون لم نر مثله . ولا يتم الجمال

(١) ان جل ما ذكره المؤلف رحمه الله في الفصل استنباط من تربيته  
ليس فيه شيء منقول يثبت ان ابا طالب كان ممتازا بما يذكره من  
شئون التربية يتوخاه في تربية ابن أخيه بحيث ينسب اليه ما امتان  
به « ص » على الاتراب وغيرهم ، ومنهم أولاد أبي طالب ، وقد بالغ  
الكاتب فيما ذكره فيه من تلقينه أنواع الدروس التجارية والاجتماعية  
في استصحابه إياه في سفره الى بصرى من بلاد الشام وهو ابن ١٢  
سنة وقيل ابن ٩ سنين

الا بصحة البدن ، وهى انما تتم بحسن الرعاية الجسدية  
واما تربيته اياه التربية العقلية فكانت جسيمة ان  
يسجد امامها فلاسفة النفس واساطين العقل ، وهناك  
من آثارها قبل النبوة ما يجعلنا فى حيرة من أمر هذه  
القبيلة الصغيرة التى تقطن بلدا بهيمدا عن بواعث الرقى  
الذهنى ، ومناجم الاشراق الفكرى . . لا كتب يدرسونها ،  
ولا قواعد للمعرفة يتبعونها ، ولا شىء الا غرائز طيبة  
يتوارثونها ، ونظم عامة يتناقلونها وحصافة أوتوها  
فى نقش اصح التجارب فى المدارك ، والاحتفاظ بأثبت  
الفوائد فى الذاكرة

وكذلك يفعلون فى التربية الاخلاقية ، ينشئون الذرية  
على دروس المشاهدة فى مدارج العمل ، ودروس القصد  
والاعتدال فى معارج الامل ، فيأتى من تلك السلالات التى  
لم تلحقها عدوى الاجيال الفاسدة نوابغ فى العقول  
والاخلاق ، وأفذاذ فى الهمة والاعمال ، وذلك كان شأن أبى  
طالب ، ودأبه مع ابن أخيه العزيز ، وريبه النجيب

### جو مثالى

نشأ « محمد » ( صلوات الله عليه ) فى جو مثالى من  
التربية القومية على يد ذلك الفاضل العظيم ، فجاء منه  
رجل احسن الناس خلقا وخلقا ، وأذكاهم عقلا ، وأزكاهم  
نفسا ، وأصدقهم لسانا ، وأنداهم فى العرف يدا ، وأثبتهم  
فى الازمات قلبا ، وأرحمهم للضعيف ، وأشجعهم على  
القوى ، وأبرهم للقريب ، وأعدلهم للبعيد ، وأقربهم الى  
المعروف سمعا ، وأبعدهم فى الأمور نظرا ، وأكثرهم  
سدادا فى رأى ، وأشداهم اقدا ، والينهم للصاحب  
جانبا ، وأكرمهم للخير صاحبا ، وحسبك أنه عرف منذ  
صباه بالامين ، وما زال على هذا المنوال حتى أكرمه الله

بذلك المنصب العظيم ، فزاده جمالا واجلالا وكمالا ، والله أعلم حيث يجعل رسالته

نشأ ذلك الفاضل على كل ما يزين الرجال من الاعمال ، فلما كان ابن اثنى عشرة سنة سار به أبو طالب الى الشام ، وكان تاجرا فأوقفه في هذا السفر على ما تكن الارض وتعلن من طبائع الاقاليم المتغيرة ، واحوال العالم المتحولة . ففى طريقهم من مكة الى الشام منازل أمم كانت فأيدت . كانوا على وجه الارض جمالا لها فلما حادوا عن السنن التي تحيا بها الامم تزعزعت الروابط بينهم ، وطارت نعمتهم جميعا ، وأصبحوا كأن لم يكونوا « فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا » وفى رؤية امثال هذه المنازل الخاوية أو المنتقلة الى غير أهلها عبرة عظيمة هى أجل ما فى السفر من الفوائد . ولقد كان فيما أوحى الى هذا المنعم عليه بعد ان صار نبيا قوله سبحانه ( أولم يسيرا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة واثاروا الارض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون )

وفى طريقهم هذا ، أوقفه عمه على قرى الشام ، ودساكرها ، ومزارعها، ومصانعها ، ومتاجرها ، وحكومتها، وأراه كيف يكدر الناس جميعا لياكل نفر منهم خبزه بعرق جبينه ، وليتمتع نفر آخر بشمرات تلك الارض الطيبة ، ونفائس ما تنتجها تلك الايدي العاملة ، وكيف يعمل شخص لآخر فى المجتمع ليستمر بقاؤه ، ويحفظ نظامه

ومر به على الاديرة والصوامع حيث ينقطع نفر آخرون عن المزاخرة فى هذا الحطام الزائل ، متوجهة نفوسهم الى الوطن الذى يليق بالروح الغربية فى هذا الهيكل الجسمانى ، غير ممدودة أيديهم الى شيء من هذه الارض

الا الى ما يقى البدن من جوع وعرى ، وذلك يتيسر  
ببعض حبوبها وأعشابها ، وبعض أصواف حيوانها  
وأوبارها

فى بعض تلك الاديرة فى «بصرى» وقف به على الراهب  
«بحيرا» وكان على حظ عظيم من علم الفراسة أو  
الكهانة فأنبأه بما سيكون لابن أخيه من الشأن العظيم  
وأوصاه بمزيد من العناية به

### دروس وتجارب

وفى هذه السفرة دربه على أساليب التجارة ، وأطلعته  
على ضروب البضاعة ، وصنوف الاداة والماعون التى  
يقوم التجار بتبادلها ، وكيف يحمل كل منهم من بلده  
مالا يكون فى غيره ، ثم يحمل الى بلده ما ليس فيه ، وكيف  
يكون لهؤلاء الوسطاء فى نقل حاجات الناس من الفضل فى  
تيسير سبل العيش

وناهيك بما ملأ به أبو طالب ذهنه فى هذه الرحلة  
التجارية من صنوف المعارف ، وأنواع التجارب . وفى  
درس كهذا من فوائد التربية العملية ما ليس فى ألف  
درس من دروس التربية الكتابية أو النظرية

ولما كان ابن أربع عشرة سنة أحضره معه فى حرب  
الفجار - وهى حرب نشبت بين قريش وبين قيس -  
فرأى فى هذه الواقعة كيف تعب الصفوف وتتقابل  
الابطال وكيف يصبر الشجعان وإن أودى بهم الصبر  
الى حتفهم ، وكيف تكون نتائج الصبر وحسن التدبير  
فى الحروب ، وكيف تكون عاقبة الذين تنقطع قلوبهم جبنا  
وتخور عزائمهم جزعا

ولم يباشر فى هذه الحرب قتالا وإنما كان ينبل على  
أعمامه ، أى يناولهم النبل ، أو يرد عنهم النبل . . . وكان

ذلك كافيا لتدريبه على مواطن النزال ، ومواقف النضال .  
 وليس بخاف أن الاخذ بيد الناشئ الى معارك أبطال  
 المبايعات ، ثم معارك أبطال المقابلات والمقاتلات هو أعظم  
 الوسائل التى تجعله أهلا للمقامات العلى بين الرجال ،  
 حتى اذا أتاح الله له الاخذ بيد قوم الى مراتب العز والسؤدد  
 والصلاح والفلاح ، كان نعم الدليل الهادى ، ونعم المرشد  
 فلما بلغ خمسا وعشرين سنة عرضت عليه سيدتنا  
 « خديجة » أن يخرج فى تجارة لها الى الشام ، وتعطيه  
 أكثر مما كانت تعطى غيره من التجار . وأشار عليه عمه  
 بقبول ذلك ، وطلب له أضعافا ، فرضيت وسار بتجارتهما  
 مع الركب الى الشام ومعه عبد لخديجة اسمه « ميسرة »  
 فلما رجع بالبضائع اليها باعتهما فربحت أضعافا وكان  
 هذا بدء تاريخ جديد للسيدة « خديجة » معه







## الفصل الحادي عشر

### الحب الشريف



## سيرة عطرة

ان اكرم السير ، سيرة ائهل الفضيلة .. وما الفضيلة الا من خصائص النفوس ، فمن كان من عشاق الفضائل حسن به الا تفتت نظرات بصيرته الى النفس فهي مستقر الخوارق ، ومستودع العجائب

النفس مجلى الآيات الكبرى ، ومهبط الفيض العلوي ، والمرآة العظمى التي ينكشف بها الازل والابد ، والمطبعة العظمى التي ترتبم بها الاشياء وتسجل الصور ..

هى السلك الممدود بين مبدع الطباع ، ومقيم الشرائع ، وبين الجواهر الثالقة الصامتة ، والظواهر المسخرة المطيعة ، فهى خليفة عايلها واقفة على خطواتها ، مشرفة على حركاتها ، وهى مجذوبة من طرف أليها بجاذبية الانس والعبادة ، ومجذوبة من طرف آخر الى مصدر بوارقها بجاذبية الحب والشوق ، فبانجذاب النفس الى الظواهر تأخذ الظواهر خطها من الانكشاف ، وبانجذاب النفس الى مابح الظهور تأخذ النفس حظها من الشهود والاشراف ، فيحقق لها فى الحاليتين أن تتمجد بما ميزها به فاطرها تباركت عظمته ، وتعالى شأنه ..

ان اعظم خصائص النفس الحب والبغض ، بل ان هاتين الطبيعتين المتضادتين اعظم نوايس الاكوان والكائنات كلها ، لكن اختلفت ألوان الحب ، وتباينت الاشواق ، واوتيت النفس الانسانية اعظم نصيب من هاتين الطبيعتين لاتساع المحيط الذى تدور فيه ، ولاتصالها بعالم الحس وعالم

الغيب وترردها بالانجذاب بينهما ، فهي ان وقفت يوما مع الظواهر انست بها فعشقتها لما أضفى عليها مبدعها من الحسن الذى هو وصفه ، وان ارتفعت الى المبدع دهشت فتولمت فتدلته لما هنالك من المجالى الازلية التى تطير السرائر شوقا الى التمتع بها .

ان الفضائل والرزائل ، والخيرات والشُرور ، والحزن والسرور ، والرغبة والرغبة ، والاقدام والاحجام ، والكسل والنشاط ، والارتفاع والهبوط . . كل ذلك من مبتدعات الحب والبغض وآثارهما . وكل درجة من هذه الاشياء فانما هى على مقاييسهما . هما بالاختصار ركنى السعادة والشقاء . فمن اهتدى الى تصرفهما والجري بهما على سنة مثلى فقد اهديت اليه السعادة وأوتى بالحب الشريف والبغض الشريف حظا من الخير عظيم

كانت السيدة « خديجة » ذات قلب طاهر ، والقلب الطاهر مركز الحب الشريف ، فماذا احبت سيدتنا هذه ؟ كان قلبها تواقا الى معالى الامور ، عظيم الشغف بمحاسن الاخلاق . وقد امد الله فطرتها نبلا وسموا ، فقويت معرفتها بالمكارم ، وعظم علمها بأن الفضائل هى التى تليق بالانسان سواء وقفت نفسه مع هذه المحسوسات أم أرادت أن تندرج فى زمرة عشاق المجالى الازلية

عرفت هذه السيدة صلة النفس الانسانية بمن منه انشقت ابرارها ، وانبتقت انوارها . . فكان لها شوق الى جود عظيم يفيض عليها من العناية الربانية ، كما هو شأن ذوى السرائر الصافية ، وقد كان نتيجة هذا الشوق أن ألهمت قوة قراصة . . والفراصة نور ، فكانت تهتدى بها فيما هى حائمة الروح (١) عليه من الفضائل ،

(١) أى فيما كانت روحها حائمة عليه . ومن العجيب عثر قسب الكاتب بهذه العبارة ثم سكوتنا له عنها

ومن أحب شيئا أحب أهله من أجله ، فلما عرفت ابن عبد الله ووجدت فيه ما يعشق من المزايا النادرة ، انتشرت حبة من تلك المحبة الشريفة اننى كانت بها تنشد المكارم فوفعت فى موضع من قلبها لتنبئ شوقا الى هذا الرجل الصالح الذى ألت المكارم كلها لديه ، وايقنت أن معرفتها هذا السعيد بمزاياه العظيمة ، هو أعظم الآثار التى كانت تتشوق اليها من لدن العناية المرجوة

الآن وجدت محبة الفضائل والمحامد أعظم من تتجلى الفضائل والمحامد فيه فكيف ينفر منه قلبها ؟ بل كيف لا يميل اليه فؤادها ؟ فالامانة هو ذلك المشهور بها ، وقد اختبرته فى تجارتها فربحت بواسطته أضعافا . والشجاعة هو الذى نشأ فيها على يد عظيم الهمة أبى طالب . والنباهة هو الذى تسطع فى مجياه طوالعها . والحكمة هو الذى نقرأ فى سيماء آياتها . والعفة هو ربها ، والروءة هو مجمع شواردها . ومحاسن الخلقة هو النسخة الصحيحة منها . . . فأى الفضل ، وإى المحامد تريد بعد هذه مريدة المحامد ؟ . . كمال خلق وكمال خلق ، جمال شخص وجمال نفس ، حنكة لم يظفر بمثلها أقرانه من الشبان ، ووقار لم يحظ بأقله الكبار ، وهمة لا تقف أمامها الصعاب ، وعزيمة لا تنى أمام الثقال . . قوى شديد ، حلیم رشید ، كما يقول فيه عمه أبو طالب وهو به جدير :

فمن مثله فى الناس أى مؤمل  
إذا قاسه الحكام عند التفاضل  
حلیم رشید عادل غیر طائش

يوالى الها عنه ليس بغافل  
لقد علموا أن ابننا لا مكذب  
لديننا ولا يعنى بقول الاباطل

فأصبح فينا أحمد في أرومة  
تقصر عنه سورة المتناول  
فما أكثر غبطة السيدة « خديجة » إذ عرفت هذا  
السيد الجليل ! وما كان أجدرها بأن يتعلق قلبها الطاهر  
به ! وما أقوى نور فراستها إذ علمت أنه لا نظير له ! وأن  
سعادتها لا تتم إلا به ! وما أحقها أن تغتنم الفرصة وتسبق  
إلى الزواج من هذا الشريف الذي جمع إلى شرف النسب  
شرف الخلال (١)

(١) مما يدل على أن أمها في نبوته كان عظيما ، ما رواه الفاكهي  
في تاريخ مكة من حديث أنس وهو الخبر الوحيد الذي روى في حبها  
الشريف ، للكمال الأعلى في شخص محمد « ص » وكو اطلع عليه  
المؤلف لأورده وهذا نصه :

روى الفاكهي في تاريخ مكة من أنس أن النبي « ص » كان عند  
أبي طالب فاستأذنه أن يتوجه إلى خديجة فاذن له وبعث بعده جارية  
يقال لها نبعة ، فقال انظري ما تقول خديجة ، قالت نبعة فرايت عجبا  
ما هو إلا أن سميت به خديجة فخرجت إلى الباب فأخذت بيده  
فضمته إلى صدرها ونحرتها ، ثم قالت بأبي أنت وأمي والله ما أفعل  
هذا لشيء ولكني أرجو أن تكون أنت النبي الذي سبعت ، فإن تكن هو  
فاعرف حقى ومنزلتى ، وادع الإله الذي يبعثك لى . قالت لها « لئن  
كنت أنا هو قد اصطنعت مندى ما لأصيبه أبدا ، وإن يكن غيرى فإن  
الإله الذى تصنع هذه لأجله لأضيعك أبدا » ويؤيد هذا ما ورد في كيفية  
بدء الوحي في الصحيح وهو أن خديجة قالت له حين خاف على  
نفسه هاقبة ما أصابه من الجهد منما ظهر له الملك « كلا والله ما  
يخزيك الله أبدا ، أنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب  
المعدوم وتقري الضيف ، وتعين على نوائبه الحق »

وكذا ما ثبت من أنها كانت تعد له الزاد لينقطع إلى التحنث في غار  
حراء « وروى الواقدي بسنده إلى نفيسة بنت أمية أخت يعلى ،  
قالت كانت خديجة امرأة شريفة جادة كثيرة المال ، ولها ثايمت كان  
كل شريف من قريش يتمنى أن يتزوجها ، فلما سائر النبي « ص »  
في تجارتها ورجع بربح وافر ، رغبت فيه فارسلتنى دسيسا  
إليه ، فقلت له ما يمنحك أن تتزوج فقال « ماى يدى شيء » فقلت فإن  
كفيت ودعيت إلى المال والجمال والكفاءة ؟ قال « من ؟ » قالت :  
« خديجة » فاجاب

## الفصل الثاني عشر

**تفاوت لهذا وقتہ**





## نبوءة ..

كانت الكهانة شائعة في ذلك الزمان ، كما هو شأنها في كل الأزمنة الى زماننا هذا . وكان علماء التوراة ينبئون دائما بظهور نبي منتظر ، وبعضهم كان يقول انه سيظهر من العرب . والراهب يوحنا تفرس في ابن اخي ابي طالب اذ كان معه صغيرا وقال له : سيكون لابن اخيك هذا شأن . ولم يكن بعيدا عن المألوف ان يتنبأ بعض الناس بالمستقبل ولكن لم يكونوا يصدقون كل شيء من هذا القبيل ، ولا يكذبون كل شيء ، كما هو الشأن في اهل زماننا ايضا .

وقد كثر التكهّن قبيل ظهور النبي (ص) ولكن اكثر الناس لم يكونوا يبالون بتلك الاخبار لانهم تعودوا ان يروا شيئا من كذب الكهانة مع مصادفة صدقها أحيانا فلم تكن الثقة بها في الحقيقة تامة ولا سيما في الامور العظيمة

وبينما نساء من قريش مجتمعات في عيد لهن في الجاهلية اذ تمثل لهن رجل ، فلما قرب نادى بأعلى صوته : يا نساء أهل مكة سيكون في بلدكن نبي يقال له أحمد فمن استطاعت منكن ان تكون زوجا له فلتفعل .. فكلدنه ورمينه بالحصى ، وكانت غيهن « خديجة » فلم ترمه كما رمينه .

لم يكن هذا النبيء كاهنا معروفا ، لذلك احتقره النساء لانهن لا يعبان في الغالب الا بأهل الشهرة .

ولكن كان قومهم يعتقدون بالهاتف وهو على اعتقادهم روح ينطق بالشيء من حيث لا يرى أو يتمثل بصورة بشرية فيقول قولا من هـذا القبيل ثم يغيب ، فكأن السيدة « خديجة » اعتقدت أن هـذا المنادى هاتف فلم ترمه كما رماه ترائبها .. ولعلها صدقت إذ ذاك ، وتفاءلت خيرا ورجت أن تكون صاحبة هـذا الحظ

وان صبح ظننا هـذا بالسيدة ، كان لنا دليل جديد على عظيم تطلعها الى بركات الجنب القدسي فان الرغبة في الزواج من النعم عليهم بالنبوة ، لا تعظم الا من العارفة بذلك الجنب الاعلى الذى يتفضل بخلعه النبوة على من يشاء

كانت النبوة معروفة عند قومها بما سمعوه من اخبار انبياء جيرانهم بنى اسرائيل ، ومعروف أن النبى رجل كالرجال .. ولكن يصطفيه الله ويرفع مكانته ودرجته على درجات سائر نفوس البشر حتى يطلعه على ما لم يطلع عليه أحدا من اسرار عالم الغيب . وليست النبوة ملكا أو حظا زائدا من نعيم الدنيا ، بل جل الانبياء الذين سلفوا كانوا مقلين ولم يكن حظهم الا مقاومة الناس اياهم وتعذيبهم ، والنساء انما يرغبن فى النعيم والرفاهية ورغد العيش وكثرة الحل والحلى ، وكل هـذا لا يرجى لدى الانبياء الذين تنصرف أنظارهم عن متاع القصور ويلتفتون الى ما فيه غبطة الروح ، فلا تتصور من النساء أن السعادة عند الانبياء الا اللاتى انعم الله عليهن بسلامة الفطرة وقوة الاستعداد كالسيدة « خديجة »

ولما رجع عبدا « ميسرة » من الشام فى تلك السفرة التى ذهبت فيها مع الهاشمى « محمد » أخبرها بأحوال غريبة رآها منه لا يكون أمثالا الا لمن سمعت أخبارهم

من الصالحين المباركين ، فما لبث أن رن في قلبها صدى  
ذلك الصوت الذى سمعته بأذنها ، صوت ذلك المنادى  
فى النساء المجتمعات اللاتى كانت معهن فى العيد . . وكان  
هذا الصدى الذى رن فى قلبها تتألف مثله هذه الكلمات :  
« تفاؤل هذا وقته »





## الفصل الثالث عشر

### فواطر في قالب فندجبة



## حيرة !

كانت خديجة تعرف ان النبوة ليست بالكسب والاجتهاد ، وإنما هي عطاء واختصاص من الجى الازلى اندائم . . ولكنها كانت تردد فى نفسها ما حكاها لها عبدها ، ميسرة . ويرن على اثره ذلك الصدى فى قلبها فتقول فى نفسها اى مانع يمنع رجائى بفضل الله بأن اكون صاحبة الحظ من الرجل المبارك الذى انبأ به الهاتف ؟ اى مانع يمنع فضل الله عن قومى اذا اراد ان يخرج منهم ذلك الانسان الذى يقول عنه علماء التوراة ، وكان لها ابن عم من جملة علماء هذا الكتاب

ثم اذا مر بقلبها خاطر آخر يقطع عليها هذه الامال وينهاها عن هذه الاحلام - التى كانت تراها فى اليقظة - ترجع الى الشئ المحقق الذى لا ينزاع فيه خاطر ولا يمارى فيه أحد وهو ما تحلى به ابن عبد الله من صفات الكمال ، فتتمثل ذهنها تلك الطلعة السنية ويلمع امامها بريق تلك العينين الدعجاوين . وتنسى الشمس وسائر الدرارى حين تذكر دائرة ذلك الوجه المثلق . ويقوى ايمانها باللائكة ، اذ ترى فى هذا الشخص البشرى آيات القداسة والطهارة ، فتقول فى نفسها أليس حسبى أن اكون ربة النصيب من فتى قريش الوحيد الذى كمله الله ، ان لم اكن صاحبة الحظ من الصالح الذى انبأ به الهاتف

ثم تعود اليها الخواطر ، وقلبها ذلك الحب الشريف الذى نبتت بذرتة فى قلبها على ضروب من الحيرة ، فتقول

فى نفسها مرة اخرى : من لى بهذا الكامل الذى مال اليه قلبى ، وحامت حوله خواطرى ، وعكفت فى دائرة محاسنه نفسى ؟ أليست تمنع العادات بأن أكون أنا الخاطبة ؟ أف للعادات ما أثقل احكامها ، وما اظلم قضاءها ، وما أشد تعقد مسالكها ، وما أسوأ عواقب الجمود عليها ، وما أبخس حظ الذين لا يتزحزون عنها !

### العادات والتقاليد

نعم .. أف للعادات ، فكم تعطلت بعض الاجيال فى سجون ضيقة مظلمة من التقليد الضار ، وحجبت عنهم أنوار التبصر والتدبر والتفكير ، فانطمست عليهم سبل الارتقاء فى معارج الاستحسان والتحسين . وغمت عليهم مطالع السعادة الحقيقية للنفوس

أف ثم أف للعادات ، فهى قاطعة الطريق على مبتكرات العقول تزج بها فى مهاوى العدم ، أو تودعها فى سجون قفر ممنوع عنها كل ما يبرزها . ويا عجباً لبنى آدم الذين يضعون العادة فى هذا المكان من الحكم على نفوسهم والقضاء على عقولهم وقلوبهم .. اليس لهم ما يذكروهم بأن العادة من صنع أيديهم وتصوير احلامهم ؟ اليس لهم ما يبسرهم بأن العادة يجب أن تكون تابعة لا متبوعة ، ومنقادة لا قائدة ؟ حتى اذا فتحت امام بصائرهم أبواب آخر لمسا هو خير ، ودعوا عادتهم تلك محمودة على قدر ما نفعت ، ولمدومة على مبلغ ما أضرت ، واستقبلوا اخرى .. مصاحبها على مقدار ما يدوم من اسبابها ، وينفع من أبوابها

تبرمت « خديجة » بالعادة كثيرا ، وتأففت من تقلبها طويلا ، وسردت كل سيئات الجمود عليها فى نفسها التى هى أعلى من نفوس الغافلين عن المقدمات والنتائج ، لما خصها الله من سلامة الفطرة ، وفضل الفطنة ، وقوة



## المعرفة ، ومزيد حرارة الهممة

ثم عادت تعذر الضعفاء الذين لا يستطيعون التغلب على الثابت الراسخ - وهم الاكثرون - وتذكرت أسباب رسوخ بعض العادات ومنها وفرة فوائدها في أوقات سلفت ، وأحوال مضت . . ورات أن الناس يرثون من السالفين كل شيء ولا يميلون الى التغيير حتى يميل بهم الدهر كثيرا على يد عاصف من الحوادث ، أو هبة شديدة من ارادة بعض الاشخاص ، وكم دكت الارادات القوية أطوادا من العادات

ربما كانت هذه السيدة تستطيع التغلب على العادة فلا تجد بأسا من أن تخطبه بنفسها لأنها كانت قوية الإرادة . ولكن من لها بانه لا يرد خطبتها وهي أرملة في الأربعين من العمر ، وهو في الخامسة والعشرين ، يشف محياه عن ذماء الفتوة ، وينشر شذى الشباب ، والمرأة مهما قويت ارادتها تتذكر الفشل فيغلب احجامها اقدامها ، وهذا من أسباب التقليد الشائع في أن تكون هي المخطوبة

ما أقسى شعور المرأة التي تجد ضالتها من السعادة ؛ ولا تستطيع الاقدام على تحصيلها ؛ أنه شعور قاس على الرجل أيضا ، ولكنه على المرأة أصعب ، لأنها أضعف على كل حال . . بيد أن ضعفها الذي زينها الله به في عين الرجل ، تمت به نعمتها ، وعلت كرامتها لديه . . ففوة الخفر والحياء من ضعفها ، وذلك أعظم حلية طبيعية تزdan بها ، ومن افتقرت الى هذه الصفة منهن رغب عنها الكرام من الرجال . وشدة الرحمة من ضعفها ، وما أنبل واجمل واكرم هذا الضعف الذي بدونه تمقت المرأة . والجبن نتيجة ضعفها . . ولولاه لما كان ثمة عدالة في اقتسام الاعمال بينها وبين الرجل

فماذا تصنع قوة ارادة السيدة « خديجة » أمام شدة خفرها وحيائها ، وماذا تنفع شجاعته أمام خشيتها من الفشل ، وماذا تجدى قوة عزيمتها وصبرها أمام المزعجات من خواطر الحب الشريف الذى ملأ قلبها الطاهر ، بعد أن كان نبتة صغيرة غرست فيه

اللهم رحماك فليست القلوب من حديد ، ولم تعد من صخر ، ان نسيم الخواطر فيها يصدع ان جاءها برائحة اليأس ، ويرأب ان اتاها برائحة الرجاء ، وكذلك كانت خواطر السيدة « خديجة » صادعة ، ورأبة ، بيد ان رجاءها كان أغلب ، ولو كشف لها الغطاء عما يحف بها من السعادة المغيبة عنها اذ ذاك لانتقلب رجاءها يقينا ، ولكن لتستكمل الفرائز حظها من النفوس ، كتب على الانسان ان يغيب عنه ما سيصادقه من السعادة والشقاء ، فترى منحوسا يضحك ويلعب والشقاء سوف يساوره عما قريب . وترى مسعودا يتلملح ويمسى ويصبح على مضاجع الحيرة والارق ، حزينا واجما ، والسعادة من حوله ترفرف بأجنحتها وسوف تقف عما قريب على رأسه ، وتشمله ، ويتبارك بها بيته

فما أشد حاجة هذه السيدة السعيدة فى مواقف حيرتها تلك الى هاتف يبشرها بقرب اتصال السعادة التامة بها . . ما أشد حاجتها الى من ينيئها بأنها هى الجوهرة النفيسة التى هيئت لذلك الذى ميزته العناية الازلية اكمل تمييز . ولكن ليظهر مزيد فضلها فى الميل الى رب الفضائل والمكارم التى لا تبارى حجب عنها كل هاتف وجبست عنها البشرى حتى تملك الخواطر قلبها الكريم . . وتمكن منه كل التمكن ذلك الحب الشريف ، لذلك الذى أجمعت فيما بعد قلوب الملايين التى لاتحصى على حبه

## الفصل الرابع عشر

# الزواج

١٠ - خديجة أم المؤمنين



## مهمة شاقة

لا بدع اذا لعب الشوق بنفوس المحبين ، كما يلعب بالكرة اللاعبون ، فان قوام الكائنات بشوق ذراتها بعضها الى بعض ، وكان جديرا أن يتجلى هذا المعنى بزيادة في غريزة خليقة الله في الأرض ، نعنى الانسان ، كى لا يكون بنو آدم وحواء انقص من الجمادات حظا في هذا الناموس الكبير الفائدة

فبعد أن تمكن من « خديجة » الشوق الشريف هذا التمكن ، أصبحت جديرة أن تتقبل هدية سعادتها ، وتكشف لها الحجب عن الرحمة التى ترعاها ، فهبط على قلبها خاطر جديد كان به الوصول الى النعمة الجديدة . خطر لها أن تبعث الى الذى سكنت مكارمه ومعاليه فؤادها رسولا تعرف بواسطته رغبته ، وتستنىء به سعادها مما ينزل على قلبه من الالهام بهذا الشأن ، وساقها الى هذا الخاطر قوة رجائها بالله سبحانه وحسن ظنها بان هذا الكامل لا يرد رغبة مثلها ، وهى الجامعة لصنوف من المعالى يقل اجتماعها فى سواها

كانت لها صديقة اسمها نفيسة - وهى أخت يعلى بن أمية - فقصت عليها حديثها وأثمنتها على هذه الرسالة . ولم يكن صعبا أن تؤدى الصديقة هذه الامانة لانها ستتكمّل كأنها صاحبة رأى تشير به حتى اذا وجدت مجالا كانت وكيلة فى ابداء القبول

لم تكن النسوة اذ ذاك محتجبات ، ولم تكن ممنوعات

من الحديث مع الرجال ، فلم تكن رسول ( خديجة ) محتاجة الا لشيء من قوة الجنان أمام ذلك المهيّب العظيم وقد استمدت من سعد مرسلتها حظا منه .. ومن يكن راعيه السعد فقل

ما شئت في تيسير ما يرجوه  
ذهبت نفيسة هذه الى ابن عبدالله ، وفي القبيلة الواحدة يعرف الناس بعضهم بعضا فقالت له ما يمنعك أن تتزوج؟ فاعتذر لها بقلّة المال اللازم للقيام بشئون العائلة ، قالت له : فان كفيت ودعيت الى المال والجمال والكفاءة ، قال لها : ومن ؟ قالت له : خديجة

قالت هذه الكلمة وصمتت تنتظر ما سيبدو منه ، وأحدث هذا الكلام دويا في فؤاده .. وبأى شيء يتحدث ذلك الفؤاد الطاهر حينئذ الا بقوله :

— خديجة الشريفة ، المعروفة بالطاهرة .. هي المناسبة ، هي الموافقة ، هي الصالحة .. اذهبى يا نفيسة فانى سأخطبها ..

فرجعت تحمل هذه البشرى ، وقد حالها الحظ في هذه الرسالة ، فالله يعلم كيف كانت تتهيب السيدة خديجة منها .. ولم تنتظر كثيرا حتى أتى خاطبا ومعه عمه حمزة ، فقال عمها عمرو بن أسد بن عبد العزيز العزى : « هو الفحل لا يقدح أنفه » وهو مثل عربى يقال للكفو لا يرد ان خطب

ما كان هذا الخاطب الكفو غنيا اذ ذاك ولكنه لم يكن أيضا معدما ، فهو من آل عبدالمطلب العامرة بيوتهم المشهورة باكرام الضيف واغاثة المحتاج ، ففى هذا السبيل تذهب أموالهم ثم يخلف الله عليهم من وجوه الكسب وأبواب الربح بما أوتوا من الهمم والشمم ، ولم يكن اعتذاره ذلك

اعتذار المعدمين وانما هو اعتذار المتربص أن يتوفر له  
مقدار إكبر . فمع قلة ماله في ذلك الحين أصدقهم  
عشرين بكرة لان اعطاء الرجل للمرأة صداقا سنة عربية  
لم يكن ليحسن تركها

والزواج عند العرب لم يكن يتطلب رؤساء ديانات ،  
ولا تلاوة الرؤساء صلوات . بل هو عقد كسائر العقود  
المدنية يتوثق برضا المرأة وأوليائها ورضا الرجل . فبخطبة  
من الرجل وتقديمه الصداق واجابة من المرأة وأوليائها  
تصبح المرأة زوجة شرعية للخاطب . وهكذا أصبحت  
« خديجة » الطاهرة زوجة محمد الامين بكلمة أعلنها عمها  
عمرو بن أسد ، فما أعظمها من كلمة جمعت بين القمرين !







## الفصل الخامس عشر

### بعد الزواج



## البيت السعيد

بدأت السيدة « خديجة » بعد هذا القران السعيد  
تزداد معرفة بهذا الجواهر الكريم الذى أتاحه الله لها  
فالقت الى يد هذا الامين بكل ماتملك ، ولم يرعها أن الكريم  
المستحکم فى سجاياه سيحمله على اخراج نصيب كبير من  
هذا المال الى الضعيف والمحتاج ، فان سيدتنا لم تكن - مع  
تدبيرها - بالشجيرة المحبة للمال الفانى ، بل كانت قد  
خلقت لتكون مساعدة على الجود ، وهل بعد معرفتها بهذا  
الكفو الشريف ترى لنفسها معه أمرا ينافى رغبته ، أو رأيا  
يفار رأيه ، وهى تلك العاقلة الحكيمة المستعدة أن تزداد  
كمالا كلما أشرق لها من سماء الفيض الالهى نور منه

وأصبح هذا البيت ملاذا للمضطرين وأمنا ، فقصدته  
الايامى ، وشبعت فيه اليتامى ، وخفت فيه هموم  
كثيرين ممن حنيت ظهورهم بكثرة الآل ، وقلة المال

كانت تلك البلاد تواجه العسر أحيانا ، وكذلك كل بلاد  
العالم لا تسلم من العسر على الدوام ، فمساعدة الموسرين  
فى زمن العسر للمعسرين أمر تقضى به الانسانية ، لكن قليلا  
من الناس من يكون لهم حظ التغلب على شياطين الشكوك  
والاوهام التى تنهى عن الانفاق خشية الاملاق ، وأما  
سيدتنا فكانت ترى انفاق زوجها ومساعدته للمعسرين  
وأخذه بيد العائلين من جملة المزايا العالية التى تقر بها  
عينها

وفى احدى الازمات كانت ملائكة الرحمة تحوم فى ذلك

البيت حول أحد الصبيان ، وتطوف في آفاق نفسه لتطهرها من كل شر حتى لا يخرج من هذا البيت الا وهو قدوة الناس في الخير والصلاح

وكان هو لاهيا عما أهد له ، وعابثا بمثل ما يعبت به أترابه . . ولم يكن هذا الصبي يتيما بل كان أبوه حيا ، ولكن أبناء السعادة - أبناء المجد الأبدى - أبناء المجد السرمدى تستأثر العناية الأزلية بكفالتهم وتربيتهم بصورة خاصة ، وظواهر يميزها من هيئت بصائرهم للاطلاع الجيد

لم يكن أبو هذا الصبي ليسمح وهو حى أن يتربى كالإيتام في غير بيته لأنه هو ذلك الشهم الشهير والشريف الخطير « أبوطالب » ولكن اشتداد الأزمة في إحدى السنين اضطره أن يقبل رجاء أخيه « العباس » وابن أخيه « محمد الأمين » بأن يأخذ كل واحد منهما ولدا من أولاده تخفيفا عنه ، فكان هذا الأسعد الذي أخذه الأمين هو على الذى صار الامام أبا الأئمة ، وبدر سماء السيادة في الامة

كانت تربية على في هذا البيت من جملة المكتوب للسيدة « خديجة » من حسن الحظ فان الغيب كان يعده لامر جليل له علاقة بهذا البيت

لعله لم يخطر على بال أهل هذا البيت اذ ذاك ، أن هذا الصبي الذى يدرج أمامهم فيسرون به سيكون الواسطة الوحيدة لحفظ نسلهم . ومن أين كانت تعرف السيدة « خديجة » انه لن يعيش لها من الذكور ولد ، وأن هذا الصبي قد أعدده الغيب ختنا كريما وبعلنا صالحا لبنتها الصغيرة . وكيف تعلم انه لا يتسلسل لها عقب الا من تلك الكريمة فاطمة الزهراء ؟ واني يخطر فى بالها انها كانت تربى هى وزوجها جدا لعثرة تتصل بهذا البيت سيعدها

العالم من أشرف العتر وستبقى مباركة في الارض دهورا  
طويلة عالية المنار ، عظيمة الشأن

نعم . . كل ذلك لم يخطر في البال اذ ذاك ، ولم يكن الذي  
في القلب الا القيام بالواجب الذي يقضى به التضامن،

نعم . . نعم . . كل ذلك لم يخطر في البال ، ولا نوى سيد  
هذا البيت مكافأة عمه على تربيته التي سبقت له فان بين  
ذوى القربى لا توجد مكافأة بل ثمة تضامن . . ولكن كان  
هذا البيت المملوء نعمًا حافلا بنفوس كثيرة تشاركه في  
تلك النعم ، لأن لأهله نفوسا لا تعرف الاستئثار ، بل تراه  
من العار والشنار ، لا سيما اذا شقى الجار

وقد استفاد من خيرات هذا البيت كثيرون كما سبق أن  
أشرنا ، أما على فانما خصصناه بالذكر ليعرف من عرفه أو  
سمع بمناقبه العالية وقضائه الكثيرة ، كيف كان هذا  
البيت السعيد مسعدا للارواح ، كما كان مسعدا  
للأبدان ، وليعرف القاريء بسهولة أن البيت الذي أخذ  
ابن أبى طالب آدابه فيه منذ كان صبيا قد كان مهذا  
لأكرم الآداب وأعلاها ، فان عليا المرتضى هو من عرفه  
العالم كله ، هو ذلك الامام الأكبر الخلق أن يكون مثال  
النبيل وعظمة النفس . . هو مجمع المعالي وملقى الاسرار  
العظمى ومظهر الولاية الكبرى

فما أكرم هذا البيت السعيد وما أعظم بركاته ! قد  
رأينا الأمين يجد فيه مجالا للتخفيف عن المثقلين ،  
والتنفيس عن المكروبين ، وفيه وجد المترددون عليه صدورا  
رحبة ، وأيديا مبسوطة ، ولديه ينابيع الجود والسخاء ،  
كما سيطر العدل والوفاء ، ومنه أشرقت الآداب العالية ،  
والتربية الكاملة ، وماذا نرى من بركات هذا البيت بعد  
ذلك ياترى ؟



## الفصل السادس عشر

### العمل الروحي





## مراسم العبادة

أشرفنا الآن على بحر كثيرة لوجه صعبة مسالكه ،  
وصلنا الى ساحل هذا البحر ، ولابد من عبوره ، وأكثر السفن  
لا يوثق بها في غمراته ، ولا بسو ثوب الهداية رأس مالهم  
الدعوى ، وما حيلة الحائرين غير الرجوع الى الله في الجهر  
والنجوى ؟

ههنا نبأ جليل تحار العقول المتحررة في فهمه ، وتشتاق  
أن نقف على حقيقته وجوهره ورسمه .. ههنا قد بلغنا من  
سيرة هذه السيدة الجليلة ، أن بعلمها كان من دأبه أن يتعبد  
بعض الاوقات في غار من جبل قرب مكة اسمه حراء فها هذا  
التعبد ؟ وكيف هو ؟ وما الذي ساق نفسه اليه ؟ وأى  
دين فرضه علينا ؟

هذا هو النبأ العظيم الذى تتمسك بنا العقول المستقلة  
اذ تسمعه ولا تدعنا نجوزه الى غيره من غير أن نوضحه ،  
واذا اخذنا في ايضاحه نخشى أن نبعد القارئ عن سياق  
السيرة ، ولكن يقوى عزمنا على هذا الايضاح ظناً بأن  
الراوى الذى يشرح كل دقيقة فيما يمر به من حكايته قد  
يفيد القراء أكثر ممن يسرد الأخبار سرداً

أن الأديان كلها رسمت أعمالاً أسمها عبادات ، ولكن بعلم  
السيدة « خديجة » لم يكن تابعا اذ ذاك لدين لأن دين  
قومه كانت عبادته تقوم حول تمجيد بعض الاحجار التى هى  
عندهم تماثيل أشخاص مقدسين ، ولم يكن هو قد تعود  
هذه العبادة التى راقى لهم ..

العبادة التى عرفت فى الأديان كلها بحسب الظاهر

اعمال وحركات يرسمها رؤساء الدين من أنبياء وغيرهم ،  
أما لبها فأشواق روحية تقوم في نفس العابد أمام معبوده  
ويصح أن نسميها عملاً روحياً حينئذ

كان يعمل هذه السيدة يأتي في غار حراء يعمل روحياً  
تتوجه فيه روحه نحو باري السموات والأرض ومشرف  
ملكه وموجه نفوس العرب إذ ذاك إليها ، ولم يكن يقوم  
بمراسم معينة

أن البحث عن سبب تسمية تلك المراسم الخاصة بعبادة،  
في لغتنا ، يكلف به الباحث اللغوي . والبحث عن أسباب  
اختيار الأقوام السالفين هذه الصور والأعمال وإدراجها  
تحت اسم العبادة يكلف به الباحثون في التاريخ ، وأما البحث  
عن الأشواق الروحية أو تعبد محمد في « حراء »  
فمكلف به كاتب سيرة السيدة « خديجة »

أن الكلمات لا يمكن أن تشفى الصدر في تجلية هذه  
المعاني ، ولكن هذا الموضوع بهذه السيرة يدعو إلى الخوض  
في هذا الميدان الشائك

قد سمعنا في سيرة زوج هذه السيدة أن روحه كانت  
من أسمى الأرواح ونحن نؤمن بهذا . . ولكن إذا نحن لم  
نتعرف بالروح ولو قليلاً فماذا يكون معنى إيماننا هذا ؟  
لا ريب في أن معرفتنا للروح أمر ضروري في هذا المجال ،  
وهو أمر يشتهي كل امرئ ، لأن كل واحد منا تخطر في  
باله هذه المسألة

### ما نحن ؟

هذا سؤال قد علم الذين بعد نظرهم في ماضي البشر أنه  
من جملة فضل الله عليهم ، وهو أساس ما يسمى في لغتنا  
ديناً وديانة وملة ، واحد الأصول والأسباب في ترقى هذا  
النوع الإنساني وسعيه نحو الكمال

هذا سؤال يحيط به غموض طال وقوف العقل عنده ،  
ههنا مرسى سفينة العقل الذي يحاول معرفة نفسه  
ومنها يتبدى مجراه لأجل ادراك هذا الجوهر

ومواقف الباحثين كادت تتشابه أمام صعوبة هذا  
السؤال ، اذ لا براهين عقلية قاطعة في نفي شيء أو اثبات  
شيء في الاجابة عنه . . ولكن اذا عزت هذه البراهين لايعدم  
عشاق هذا البحث آيات كثيرة فى الموجودات . ومن فضل  
الله على الكائنات البشرية ، أن جعل قلوبهم مستعدة  
لقبول ما تاتى به هذه الآيات من ضياء ، ولا يحرم منه الا  
قليولون تزنم فيهم الحيرة لاسباب محسوسة وغير  
محسوسة

هذه الموجودات قد ملئت آيات ، فاذا حالت دونها  
الحجب لج العقل فى محارات أو عمايات ، واذا بدت  
لا يحجبها حاجب سلك فى هدايات . . انها لمن تأمل مراتب  
وصفوف . . ولكل وجود قوة ، ولكل قوة اثر . اختلاف  
القوى وآثارها ، هو على مقدار أشكال الموجودات وصورها  
وحيزها . ولما رزق الانسان ملكة النطق وضع اسماء  
لكل ما لاح له من وجود ، وظن المسكين أنه بوضع الاسماء  
أحاط بالحقائق وهى لم ترده عنها الا بعدا

الانسان بعض هذه الموجودات، وفيه قوى تحتاج حسب  
عادته الى أسماء ، فالروح للانسان اسم للقوة العظمى  
التي فيه ، اسم لما يكون به الانسان مستقلا متميزا يقول  
أنا ، ويقال عنه هو ، وأن عفا أثره . .

آمن الناس بهذا الاسم متفقين ولكن فيما يدل عليه قد  
اشتد اختلافهم ، وحرار نظرهم فى ادراك حقائق هذه القوى  
التي فى الانسان وفى كيفية علاقتها بهذا الجسم البشرى  
الذى متى برحته أصبح لا فرق بينه وبين كثير من

انواع الجماد ، والذي يزيد حيرتهم شدة تسامي  
بعض الأرواح كروح من سعدت بقربه سيدتنا صاحبة  
هذه السيرة

بحثت كالباحثين ، وحررت كالحائرين ، ثم وجدت  
كالواجدين ، فما ألدها على القلب من حيرة عقبها بلوغ  
الغاية والحمد لله رب العالمين

إليك حديث نفسى بشأنها : افقت اليوم من النوم  
وتسلل حسى وشعورى من غلاقه ، كما تسلل هذا الفجر  
من غمده ، فوجدتنى كأننى وليد هذه الساعة ، لأننى قبل  
هذه اللحظة لم أكن أرى هذه الاكوان ، ولم أحس بما فيها  
من الاصوات والالوان ، ولم أكن اشعر بما يلائمنى أو بما  
يؤلمنى ، فكاننى كنت غير هذا الموجود الجديد

أين كانت لذتى برؤية السماء وانسى بما على هذه  
الارض ؟ وأين كان ابتهاجى بزواهر هذه الزرقاء ،  
وزواجر هذه الفبراء ... ومن حولى الآن اغانى طيور ،  
ورقص غصون ، واريح زهور ، وبدائع نقوش ، وترتيب  
صنوف ، وحرركات نور ، وتجليات سكون ، وأحس انا آثار  
انفعال من كل هذا قد تحرك بها ما اسمه فكرى ثم تحرك  
بها ما اسمه لسانى ، فسمعتنى أقول : سببحانك ربنا  
ما خلقت هذا باطلا ..

سبحانك يا فاطر ، يا بارىء يا مصور ، ولك الحمد ! انا  
متذكر الآن أننى أبصرت هذه المرئيات ، وسمعت هذه  
الاغانى أمس حين بزغ الفجر .. فأين ذهب بصرى وسمعى  
بين ذينك البصر والسمع اللذين كانا أمس وبين هذين  
البصر والسمع اللذين أتياى الآن ؟ وأنا متذكر أن هذا  
الأمر حدث لى مرارا كثيرة ، بل الوفا من المرات .. فما  
هذا الاحتجاب ثم الظهور ، وأين كان الاحساس محتجبا  
قبل أن يعرفه أول مرة ؟

رباه ! من أسائل عن هذا .. ؟ ان هذه الصوامت التى  
من حولى لاتجيب ! لعلها لا تسمعنى ، أو لعلى لا أسمعها  
أو لعلها لا شأن لها بهذه الامور ، وكيف أصبر على  
جهلى بشيء يتعلق بى ، وكيف لأبحث عن منشأ احساسى  
وعن احتجاجه ؟ ألا يهمنى أن أعرف هل أمره كأمر هذه  
الشجيرات يتساقط ورقها ، ثم يعود ، ثم تيبس مرة واحدة  
فتصير حطباً ثم رمادا ؟ أم أمره كأمر هذه الشمس يظهر  
نورها من جهة ، ثم يغيب عنها ، ثم يعود اليها ، وهو لا يزول  
أبدا ؟ كيف أقنع النفس الانسانية بحالة هذه الشجيرات  
وهى لها من الخواص والآثار ما ليس لشيء غيرها فى هذه  
الارض ؟ كلا ، أسائل .. ثم ، كلا .. أسائل !

رفعت رأسى الى السماء ، فالفيت بواهر ولا مجيب ،  
وأهويت به الى الارض فالتقيت بواهر ولا مجيب ! ..

فضاء أمامى ، لا أعرف له مساحة أو حدودا .. تارة  
يفيض نورا ، وأخرى يحتجب بالظلمات ، أرانى وأرضى  
محمولين فيه ، ولا أعرف من هذا المتن العظيم الا أسماء  
وضعوها له لا تشرح كنها ولا تؤذن بدلالة كافية ..

تتلاعب فيه النسمات لعلها ناسية أن الامر جد ،  
وما هو بالهزل واللعب ، وتتناغى فيه الاصوات كأنها  
تحسب أن فى كل موجود عقلا أو حسا يأخذ بحظ منها ،  
ولعل حسابها فى غير موضعه !

بينى وبين كل ما هو محمول فى الفضاء مثلى علاقة قد  
عرفتها بهذا النور البازغ ، فهل بزغ هذا النور لأعرفها  
أم لتعرفنى ؟ وهل كانت لى ، أم كنت لها ، أم كنا جميعا  
لهذا ، أم كان هو لنا ؟ .. ولكنى أعرف يانور انه لولاك  
لما عرفت شيئا ..

سلام عليك ايها النور ! يا حاملا نعمة المعرفة الينا ،

وشكرا لمن تسبىح ايها النور بجلاله ، وتهدينا الى آيات  
جماله ..

بالنور عرفت ما عرفت ، ولكن لست أدري كيف عرفت ،  
قد نقشت السموات والارض على عظمتها في لوح لا يكد  
يحس في ذهني ، فهذا اليم الذي يعج الآن امام غرقتي  
أصبح لاشيء عندي على اتساعه لانه محدود ، وهذه  
الشمس العظيمة التي بدأت تبرغ هذه الساعة قد غدت  
صغيرة في عيني لانني أحطت بها ، وهذه الارض التي  
أراها كسرير لي قد تلاشت في نظري ، اذ وجدتتها هي  
وكل بحورها ذرة طافية في ذلك اليم الذي لا ساحل له  
أدركت في هذه الساعة ان هذه الاشياء كلها مهما عظم  
حجمها ، فهي كالصفر بالنسبة الى مالا نهاية له ، فعلمت  
ان ليس فيما أحاط به حسي ما يدفع عن فكري عطشته  
راقني جمال هذه الكائنات ، ثم حيرني منها انها كلها  
مستخرة لنا وما نحن بمسخرين .. فهل نحن على ضعفنا  
وصغر أحجامنا اكرم وأعظم قدرا منها ؟

تركت حيرتي لحظة ، والتفت الى هذه الشجيرات التي  
أراها تتزين كهرائس الانس ، وسألتها فلم تجب ولم  
أفهم حفيفها ، واثبتت الى هذه اليمامات الراقصة  
بأعناقها فسألتها فلم تجب ولم أفهم هديلها ، لكنني  
استأنست بهذه وتلك أكثر من استئناسي بالمتحجرات  
لاشوق يخالط منها الجنان ، ولا حركة لها الا على يد  
الانسان ، وطال انسى بهذه الخضر المترنحات ، والورق  
المتغنيات ، حتى كدت أفقه حديثها ، وأفسر تبيانها ..  
هذه ذكرتني بمعنى الحياة وأعادتنى الى نفسي ، وهي ضالتي  
المنشودة وبها الهدى الى ما أشده

لم أجد غير نفسي يجيبني عن نفسي بعد ان ساح حسي

وفكرى فى هذه العوالم المحدودة .. اياها ناجيت ، وكلامها وعيت ، فهى التى حدثنى انى لست الا ذرة صغيرة جدا سابحة فى هذا الفلك ، وفى هذه الذرة الصغيرة ذرات كثيرة كل واحدة منها بالنسبة الى الذرة الجامعة هى كواحد من ألوف ألوف الألوف ، وفى كل واحدة توجد الحياة .. ولكن ليست كلها مركزا للحياة لاننا نجد أن ألوف ألوف الألوف من هذه اذا فسد وضعها لاتزول الحياة ، ولكن هناك بعض ذرات اذا فسد وضعها تزول الحياة كلها من جميع هذه الذرات التى يتكون من مجموعها الجسم ، فهذه الذرات القليلة التى هذا شأنها هى مركز الحياة

### الادراك الفكرى

ان أعظم مجالات الحياة فى نظرى هو الادراك الفكرى ، وهو مستقر فى ذرات قليلة لا يحاط بها ..

أدهشنى هذا الموقف الذى وصلت اليه ، وهذا المراه الذى وقفت عليه ، حيرنى من هذه الذرات أن تسع صور السموات والارض وصور أعمال البشر منذ كانوا الى اليوم ، وحيرنى منها ان هذه النتائج العظيمة التى تصدر عنها انما تصدر اذا كانت بوضعها المخصص لها ، وما أسرع زوال هذه النتائج اذا اختل وضع الذرات

رأيت هذا الامر العجيب ، ولكن لا مستقر للفكر عندهذا المراه اذ قصاره انى عرفت شيئا صغيرا جدا يسع أشياء لا تحصى مع اننى انما أبغى أن أعرف ما هو ذلك الشيء الصغير مبناه جدا العظيم معناه جدا ؟ ما هو ذلك الشيء الذى بوجوده على حالة معينة ، يكون هذا الجسم متحركا حساسا يحيط بالسموات والارض ، ويتغيره يفدو هذا الجسم ترابا صامتا مستقرا تحت الاقدام ؟ ما هى تلك

الحالة الخاصة ؟ وما هو تغيرها وكيف نظامها ؟ هل هو في احاطته تلك تابع لهذا النظام أم النظام تابع له ؟ هل هو يحتاج الى هذا النظام بعينه أم يستطيع أن يؤلف نظاما آخر متى تغير نظامه هذا ؟ وان كان تابعا لهذا النظام بعينه فهل وجد هذا الشيء ليزول بأسرع من لمح البصر بالنسبة الى عمر غيره ، على ما يتخلل وجوده من الاحتجابات ؟

غموض يلفه غموض .. ولكن تلوح خلاله آيات ، اذ قد ملأنا رب الوجود أمثالا ، واناحت لنا معرفتنا بالامثال اليقين بأن حقائق الاشياء محتجبة والظاهر انما هو آثارها . . فهذا النور الذي يملأ الفضاء لا نعلم كنهه ، وهذه الشمس وما حولها لاندرى كيف قامت ، قصارانا انا عرفنا سببها في هذا الفضاء لا تسندها عمد ، ولا يعتريها سكون ، وهي مع ذلك سائرة بنظام ودائرة باحكام ، لا تخرج عن مستقراتها ولا تحيد عن مجاريها ، ولكن ما هو ذلك السر الذي قامت به هذا المقام ؟ سموا شيئا من ذلك بالجاذبية ، فهل هذه التسمية دالة على الكنه والحقيقة ؟

### قصور التفكير

ان قصارى ما نعرفه من هذه المركبات انها قابلة للتحلل فاذا حللناها انتهينا الى عناصر قليل عددها لا تتحول ولا تتحلل ، هي الامهات ، ثم هي تنتهي الى أم واحدة لانعرف من امرها شيئا !

المشاهدة هي اكبر وسائط معارفنا ، ولكن اداة هذه المشاهدة عاجزة عن ان ترينا الاشياء كما هي ، ولو اقتصر الامر عليها لكانت معلوماتنا عن هذه الكائنات خطأ من اولها الى آخرها

هذه الشمس التي نحن وارضا في نظامها الكبير أقل من



حبة رمل في جبل عظيم ، ليست أمام المشاهدة الذاتية لكل واحد منا الا كمصباح بسيط يشتعل ساعات وينطفئ ساعات ، وما هي الا بحجم كرة مما يلعب بها اللاعبون على هذه النسبة من الخطأ نرى كل شيء أقل من حجمه وعلى خلاف وضعه ، فقد نرى واحدا وكأنه متعدد ، وبسيطاً وكأنه مركب ، وساكناً وكأنه متحرك ، وصغيراً وكأنه كبير ، حتى نصل الى ما هو صغير جداً فلا نراه البتة كما دلتنا التجارب بعد أن اهتدينا للأجهزة العلمية التي تساعد ابصارنا الطبيعية ايما مساعدة . . بهذه الأجهزة استطعنا أن نرى أنواعاً من الكائنات الحية الدقيقة ظلت خافية على الابصار دهوراً . ولعلنا سنهتدي الى ما يربنا أصغر من تلك الصفائر ، ونحن في مثل هذه الهدايا العظيمة التي جاءتنا هدية من الخالق عن طريق التجربة ، لانجد مايمنعنا من الظن بأننا مهما استعنا بالأجهزة سنظل في مشاهداتنا بعيدين عن كشف الأشياء كما هي ، وتبقى أشياء كثيرة خافية عن ابصارنا وأجهزتنا مهما بلغنا من دقة وقدرة . فما أكرمك يا عيني على ! . . انت كنت سبب ارشادي الى حقيقتي اذ لم تريها لانني عرفت بالتجربة أنك مسكينة عاجزة لا ترين كل شيء ، ولاترين شيئاً مما ترينه على وضعه وحقيقته فاضطرت أن أقيس وجودي على وجود غيري ! . لا جرم أن لي حقيقة مستترة عنك وراء وجودي الجسمي الذي تشاهدينه ، كما أن وراء النور حقائق هي سبب وجوده

ان الحقيقة العظمى التي هي كامنة من وراء الأشياء كلها ، وظاهرة عليها كلها ، هي حقيقة خالق الوجود . . حقيقة من لا بد لوجودنا من وجوده ، ولا بد لتشكلنا وتنوعنا من فيض تخصيصه وجوده ، هي حقيقة من له الحياة الازلية الابدية لان الحياة التي نعرفها عنه صدرت ، وله العلم الازلي الابدی

لان العلوم التى نعهدھا من فضله آتت ، وله الإرادة  
الازلية الابدية لان الإرادة التى نجدها من لدنه أهديت  
وله القدرة التامة الشاملة لان القدرة من عنده نشأت . .  
هى حقيقة من لا مثال له فى كمال وجوده ، وعنه صدرت  
أمثلة الكمال فى الكائنات المرئية . . هى حقيقة البارى  
المصور الذى برا حقيقة مثال كامل حى سميع بصير مريد  
وجعل حجابہ هذا الهيكل البشرى

### الحقيقة العظمى

أصبحت لا أرتاب فى أن الحقيقة العظمى هى التى تهدينا  
بآثارها وبإمداداتها الى كل شىء مما نعرفه ، ولكن لشدة  
ظهورها الذى قد يكون ساطعا مثل الشمس ، ربما تعجز  
العين عن رؤيتها . . ونحن اذ نطلب معرفة النفس تظهر  
آياتها العظمى . . فسبحان الله ، من عرف ربه فقد عرف  
نفسه ، ومن عرف نفسه فقد عرف ربه

عرفت الان من أمر نفسى أو روحى أنها لا يعرف كنهها  
ولم يزدنى جهلى بكنهها الا ايمانا بحقيقتها الجليلة المستقلة  
عن الجسد ، لأننى لم أعرف من أمر كل جزء من أجزاء  
الجسد الا مشابته لهذه الجمادات التى أمامى وليس فيما  
أمامى شىء يجمع فيه ما تجمعه هذه الروح . وقد حاولت  
كما يفعل بعضهم ، أن أنسب هذه الخواص الى المجموع  
المركب من هذه المواد ، على نظام خاص ، فلم يسلس له فكرى  
بل جميع عنه كثيرا لتذكره النظام الشمسى وذهابه الى أنه  
أنما قام بما يسمونه الجاذبية ولم تقم هى به . فما نفسنا  
أو روحنا الا جاذبية النوع وكهربائية الخصائص والمزايا ،  
وهى مؤلفة الهياكل وناظمتها . ولا بدع فى ذلك ، فالكائنات كلها  
من أصل لا يرى ولم تنفصل عنه ، ولا يكون الاصل تابعا  
للفرع ، ولا ضرورة لتغير الاصل اذا تغير الفرع . ولا يصعب

فهم هذا على من عرف كيف يتجسد مالا يرى فيصير ممّا يرى ، وكيف يتلف ويشف ما يرى فيصير ممّا لا يرى . الصناعة بهذا ضمنية ، والتجربة فيه هادية أمينة ، ولا يصعب أيضا على من عرف آيات النفس التي تظهر في بعض الأشخاص لتعلم منها أن لها شئونا غريبة جدا فوق المعهود منها والمألوف من دخولها في قيد الحس ، سبحان الله كم لها من انطلاق منه يظهر معه أن لا حاجة لها بهذه الاجهزة العضلية والعظمية والعصبية

لقد شاهدنا ذلك كثيرا . . وشاهد مثلنا خلق لا يحصون . والباحثون والمحققون شاهدوا أيضا أو نقل اليهم ثقات كثيرون مجموعهم يدفع عن نفوسهم الرب ، وما علمنا انهم وجدوا لهذا الامتياز الفائق اسبابا جلية ! غاية ما صنعوا انهم وضعوا لبعض هذه الامور اسماء وظن الناصرون ان هذه الاسماء تحل الاشكال ، وتحكي حقيقة الحال !

وسمعنا سماعا لا يستطيع الرب معه البقاء ، ان اشخاصا يشفون امراضا معضلة بغير علاج ، ولم يقل لنا علماء الابدان في تعليل هذا الامر الا انه شفاء بالوهم . . فيا عجبا ما هو هذا الوهم الشافي ولماذا لا يشفى بالوهم كل شخص

حالة النوم تنويما مغناطيسيا هي من الادلة الصريحة في هذا الباب على شدة غرابة امر هذا الموجود الصغير الكبير واستعدادة لخرق الحجب الكثيفة ، والتحرر من القيود الحسية ، وقيامه بالاعمال العظيمة ، من غير حركة يديه او واسطة ياتيهما !

هذا حديث نفسي ، وخلاصة ما ظهر لى أن الروح خلق مستقل ذو مظاهر فائقة ، واحتجابات محيرة . . وهو

أقسام كثيرة ، نصيبنا منه عظيم ، وارتقاء نوعنا لولاه عديم ، هو الحى السميع البصير المريد المستعد للظهور والاجتماع المصنوع آية كبرى دالة على جامع الاكوان ، وظهر لى أن خصائص الروح الشوق ، ولو قلت ان الروح هو الخلق ذو الشوق لما وجدت هذا غريبا فى تعريفها . ولكل روح شوق يناسبها ، وعلى نسبة شوقها تكون رتبته ومنزلتها فى عالمها الذى هى منه ، وفى عالم المثال والعيان الذى دفعها اليه شوقها الى الظهور

### الشوق الرؤية الخالق

كانت روح هذا السيد بل سيدةنا «خديجة» من اسمى الارواح ، وكان شوقها أزكى شوق وأقدس . كانت عظيمة الشوق الى رؤية خالقها ، ولكن هل الخالق عز وجل يرى؟ لعلها حارت زمنا فى هذا الامر ؟ ولعلها قالت لو كان يرى لكان محدودا وكيف يدخل فى حد من برا الحدود ؟ ولعلها عادت الى زيادة التبصر ، فقالت هل الرؤية وقف على هذه الباصرة ؟ وهل يشترط ان يكون المرئى متشخصا ؟ اليس القصد من الرؤية العلم ؟ الا يمكن العلم بالفاطر مع أنه غير متشخص !

هذا ما كانت تحوم حوله هذه الروح العلوية التى كان مظهرها وبيتها الصورى فى بيت « خديجة » ومطافها ومطارها ملكوت الحق ، ملكوت الوجود الاعلى

ولعلها يشئت من ان تجد فيما حولها ما يروى أوارها من معرفة خالقها الذى اشتد شوقها اليه ، بل لعلها غلب عليها ذلك الشوق حتى أصبحت زاهدة فى كل رؤية وكل سمع لأنها تريد ان ترى وتسمع الذى اليه طارت شوقا ، ولذلك رأينا « محمدا » صلى الله عليه وسلم قد حببت اليه الخلوة والانفراد ، ولا سيما اذ شارف الاربعين

من عمره ، وكان لغار «جزاء» الحظ من هذه الروح الحائمة على حببها وطبيب شوقها

من ذا الذى يعلم غير الله ما كان يقوله هذا المنقطع في ذلك الغار ؟ ولكن يصح لنا أن نظن بأنه كان يذرف الدموع ويناجى المقصود المطلوب بقوله : رباه ! رباه ! كيف الوصول الى حضرتك « كيف السبيل الى مشاهدة تجلياتك ؟ اليك أيها المولى من مزيد حبي : قيامى وقعودى ، وركوعى وسجودى ، ومن مزيد شوقى : ذرف دموعى ، وفرط ولوعى ، رحماك رحماك ياربى ! كبد تذوب وعين تسيل ، وفكر يتدله ، وانت أنت مطلوبى ، وانت أنت ذو الكرم والجود !

على هذا المثال كانت حاله ، وهذا هو العمل الروحى الذى شغل به باله (١) وقد فهم القريبون من فهم الروح مدى فائدة هذه النجوى القدسية ، وأما البعيدون عن هذا الشوق فيعجبون وينكرون ، وليتهم يتذكرون محن الناس وتدلّياتهم بهذه المتغيرات من صور وأشكال لا تتوقف الحياة عليها ، ولا يجدون الطمأنينة لديها ، هذه المحن والتدلّيات ادعى للعجب لعمس الحق لو كانوا يعقلون . وأما ابتعاد روح المحسوسات في سبيل الاقتراب من حضرة من لا تدركه الابصار فسعى وراء مبتغى جليل

العمل الذى فيه لذة لا ضرر على الغير فيها ، لا ينكره عقل ، ولا رباب الاعمال الروحية لذات لا يستبدلون بها كل لذات المقتونين بالمحسوسات فعسى ان يتذكر العقل المتحرر هذا المعنى ، فلا يصعب عليه أن يفهم أقل حكمة في الاعمال الروحية . . وهى لذة أربابها وانتعاشهم وتفتح

(١) ويفهم من القرآن انه كان يتفكر في ضلال الناس بالشرك والفساد في الارض ويطلب من الله الهداية الى المخرج من ذلك ( ووجدك ضالا فهدى )

بصائرهم لرؤية المعالي كما هي ، فلا يحزنهم شيء بعد في  
 سبيل الظفر بها ، ولا تقف همهم امام تضحية في طريقها  
 كانت السيدة « خديجة » سديدة الفهم عظيمة الثقة  
 ببركات هذا العمل الروحي فساعدت عليه ولم تلم صاحبه  
 ولا عاقبته . . كانت عظيمة الايمان بالقوة العظمى ،  
 والحقيقة الكبرى ، فلم تر بأسا ، بل لم تر الا الخير ، بنوجه  
 وجه زوجها الكريم تلقاء سوانح الامدادات الفائضة من لدن  
 ذلك الملكوت الذي لاحد له . كانت قد عرفت ان هذا الغار  
 في « حراء » المجرد من كل مشتهى حسي ، كان حريا ان يكون  
 ملاذا لهذا الانسان الكريم الذي يحمل قلبا ، فرغ من كل  
 شيء سوى الوله بالمعاني القدسية ، والشوق الى الحضرة  
 الربانية ، فكانت تبارك هذا الغار وتسال الله ان يملأه  
 بركات ، وقد اجاب الله تعالى بكرمه سؤالها وكتب « حراء »  
 في الصف الاول بين الاماكن التي تتوج بتمجيد الناس  
 وتقديرهم وتكريمهم . . وكم عبرت قرائح الشمرء عن  
 تقديرهم وتكريمهم لهذا الغار أو لفيض النور الذي فاق  
 بدره البدور . قال قائل منهم :

سلام عليك حراء الشهير امطلع ذاك الضياء العظيم  
 سلام فؤاد ذكور شكور بقدر الذي قد صبحت عليم



لانت يتيمة عقد الوطن ففبك اضاء السراج المنير  
 بذكراك يلقي الفؤاد السكن فذكراك ذكرى عطاء كبير

## الفصل السابع عشر

### بدء الروح





## الحادثة العظمى

فى « حراء » حدثت الحادثة الاولى من التاريخ الجديد الذى سنرى فيه بعل السيدة « خديجة » فائقا فوفا عظيمما مدهشا .. وهذه الحادثة العظمى التى هى بداية هذا التاريخ هى أن روح محمد ( صلى الله عليه وسلم ) اجتمع هناك فى « حراء » بروح غير بشرى ، وأبلغه هذا الروح الغريب رسالة شأنها عظيم

لقد ذكرنا فى الفصل السابق من أمر الروح ما فيه الكفاية ، ذكرنا فيه ما لعل القارئ يشرح به صدره الى القول بوجود موجودات ذات حياة على انواع شتى ، ولا يشترط فى بعضها أن تكون لها أشباح كالاشباح البشرية . وهذا قد سبقنا البشر كلهم الى القول به ، ولم يشذ عنه الا قليل .. وهم كلهم قائلون ان بين الروح الذى هو انسان وبين الارواح الاخرى اتصالات ، فانا كاتب هذه السطور لست بمبتدع خبرا ليس له مثال بذكر هذه الحادثة التى قد يراها غريبة من يحبون التباعد عن الروحيات ، ومن يؤمنون بها أحيانا ويكفرون بها أحيانا من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون

هذه حادثة عظيمة فى السيرة التى نحن آخذون فى الحديث عنها ، ونحن مقتنعون بوقوعها ، ولا يدعونا الى استماع هواجس المنكر الا الحرص على القيسام بحسن المرافقة .. فان كان المنكر ينكر عالم الروح من حيث هو

فالحق أن حيلتنا البيانية معه قليلة ، ولكنى أظن أن حديثنا عن هذه الناحية في الفصل السابق قد تجديده .. وان كان ينكر العلاقة بين الروح الذى هو الانسان وبين الارواح الاخرى ، فليس لنا مانتوسط به الى ابلاغه هذا المشهد غير نفسه ، فليرجع اليها كثيرا وليدقق في حديثها جيدا ، وأن كان ينكر صدق محمد ( صلى الله عليه وسلم ) في حديثه بهذه الحادثة مع أنه لا ينكر وقوع مثلها لغيره فالخطب في مناقشته سهل

كان « محمد » صلى الله عليه وسلم صادقا شديدا الحرص على الصدق واشتهر منذ حدوثه بلقب « الامين » قد عرفنا صدقه كما عرف الناس شجاعة اناس من الشجعان ، وكرم افراد من الكرماء ، وعلم جماعة من العلماء ، وكما عرف بنو اسرائيل صدق الانسان موسى الذى كان قد سمع الكلام الالهى ، وظهرت له الارواح العلوية ، وكما عرف النصرى صدق الانسان عيسى الذى كان روحا من الله ، وكما عرفوا صدق تلاميذه وانصاره الذين حكوا حكايته وبشوا بشارته

هذا الصادق الامين رجع ذات يوم من « حراء » صاحب اللون ، مرتجف الصدر .. يعلوه اضطراب الوجل الحائر ، وخشوع المؤمن الصابر .. فما وقع نظر السيدة « خديجة » عليه حتى عرفت ان امرا عظيما قد ألم به .. فخفق لأول وهلة قلبها ، وسألت بسرعة البرق نفسها : ماذا اصاب حبيبى ؟ ماذا ألم بذلك القلب الذى لا تفزعه الرجال ، ولا تجزعه الاهوال ؟ ما بال ذلك الصدر المسوط تثنيه الرجفات ، ما بال ذلك الطرف التقرير تكاد تبادره العبرات ؟ رباه ماذا اصاب حبيبى ؟ — قل لى ايها الحبيب ماذا اصابك ؟ حنانيك قل لى ! قل لى !

## — دثرونى دثرونى

— لا صبر لى عن معرفة الامر الان فقصه على  
 — بينا أنا فى « حراء » اذ جاءنى روح فقال لى اقرأ  
 قلت له « ما انا بقارىء » فأخذنى وغطنى غطة (※) وقال  
 لى « اقرأ » قلت « ما انا بقارىء » . قال لى : ( اقرأ  
 باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك  
 الاكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم )  
 — ألم تسأله من أنت ، ومن جاء بك ، وماذا تريد منى ؟  
 — سمعته يقول انا جبريل جئت ابلك رسالة ربك

هذه هى الاولى من الكلمات التى سمعها محمد ( صلى  
 الله عليه وسلم ) من ذلك الروح الذى ظهر له باسم  
 جبريل وهو من النوع المسمى ملائكة ، والآن قد فتح لصاحب  
 « حراء » بابان : باب حيرة جديدة وباب هدى ، فأما الحيرة  
 فظاهرة يكاد يراها كل من سمع هذه الحادثة فان ظهور  
 الارواح غير البشرية لافراد النوع الانسانى ليس من  
 المألوف ، فاذا صادف أحد الافراد شيئاً من هذا القبيل  
 لا يقوى طبعه البشرى لاول وهلة على تحمل مواجهته  
 والانسان به . كل واحد منا يعرف هذا عندما تفاجئه  
 أمور لم تكن تخطر على باله ، مع انها من الامور التى تقع  
 كثيراً . فكيف الحال بالامور التى تحدث نادراً الى حد ان  
 بعض الناس لا يصدق وقوعها

انه ليخيل الينا ان صاحب « حراء » قد دهش لما  
 سمع صوت ذلك الروح يناديه « اقرأ » . . يخيل الينا انه  
 قال فى نفسه : رباه ما هذا الذى أسمع ؟ رباه ليس ههنا  
 من بشر فهل يتكلم غير البشر ؟ رباه ماذا يراد بى ؟ انتى  
 أعلم انى فى يقظة لا فى منام ، واننى أسمع كلاماً لا ريب

(※) ضمنى بشدة وضغط

فيه ، وأننى أحس بقوة تؤثر فى ، ولا عهد لى بمثل  
هكذا من قبل ! .. رباه أن هذا أمر يدهش ، فكن اللهم  
عونى ، وخذ يدي ، وثبت فؤادى ، وقونى على مواجهته  
إذا عاودنى ..

نعم انه ليخيل لينا أن المفاجأة بذلك الروح جعلته  
يناجى نفسه ويناجى ربه بمثل هذه الكلمات وهو  
ذاهب الى خديجة ، فلما لقيها قال « دثرونى دثرونى »  
واختصر لها الحديث اختصارا

دثرته « خديجة » وجعل العرق يتصبب منه . وقد  
عاوده الروح بعد ذلك . وقال له ( يا أيها المدثر \* قم  
فأنذر \* وربك فكبر \* وثيابك فطهر \* والرجز فاهجر  
\* ولا تمنن تستكثر \* ولربك فاصبر )

ان من يفاجأ بمثل هذا جدير بالحيرة ، وهذا ما أشرنا  
اليه هنا ، ولكن مع هذه المفاجأة قد أنس بأسم ربه ، فكان  
هذا الاسم الجليل حريا أن يكون دواء شافيا من تلك  
الحيرة ، وكافيا أن يفتح باب الهدى والطمأنينة

## الروح جبريل

الروح « جبريل » يقول له أنا من عند ربك ، جئت  
أبلغك رسالته ، جئت ألقى عليك وحيا من عنده ، وفى  
هذا الوحي الذى جاءه به مفتاح لتلك المغالق التى أشرنا  
اليها آنفا التى كانت تقف أمامه دائما .. فى هذا الوحي  
مبدأ أرشاد وتعريف له بربه خالق الانسان .. فى هذا  
الوحي إهابة بفكره لتناول معارف عليا ، وتعاليم عظمى ،  
فى حقائق الوجود

كانت الحيرة تردفها الحيرة . وأما هذه الحيرة فان  
الهدى يعقبها لان العناية الالهية ظهرت أتم ظهور ، والعطاء

الرباني سلم جليا لتلك اليد التي كانت مرفوعة في «حراء»  
تلقاء السماء

وكان أول معراج عرج بصاحب هذه اليد عليه الى  
تلك الحضرات القدسية هو اعلامه علم اليقين بأرواح  
عالية تتكلم ، هي غير الارواح الانسانية الحالة في هذه  
الصور البشرية . . وذلك بجعل واحد من هذه الارواح  
واسطة بينه وبين مصدر الحياة والعلم والارادة

هذه عناية كبيرة جدا لم يرو التاريخ وقوع مثلها  
الا لقليلين : منهم النبي ابراهيم ، والنبي موسى ، والنبي  
عيسى ( عليهم السلام )

يقول له الروح « جبريل » ( اقرأ باسم ربك الذي  
خلق \* خلق الانسان من علق ) فهذا القول العربي الجليل  
يصور له من النشأة المادية في خلق الانسان صورة يتجلى  
فيها عظيم قدرة الباريء المصور ، وعظيم ضعف هذه  
الصور البشرية لولا روح الله الذي يسندها ويؤيدها

يقول له الروح « جبريل » ( اقرأ وربك الاكرم \*  
الذي علم بالقلم \* علم الانسان ما لم يعلم ) وهذا القول  
المجيد يصور له من النشأة الروحية في كون الانسان  
صورة يدهش الالباب فيها عظيم صنع الله في ترقية  
الانسان بواسطة قصبة لا يؤبه لها لدى النظر . . نعم  
بواسطة قصبة - نعنى بها القلم - كان الرقى العظيم العقلي  
لهذا الكائن الذي خست العناية الازلية نوعه بمزيد  
من الخصائص

وغريب في الامر ان المواجه بهذا الخطاب لم يكن من  
أرباب القلم ، بل كان اميا لا يعرف القراءة ولا الخط  
بالقلم ، فما معنى ان يكون أول وحى اليه هو الامر بالقراءة  
والتنويه بالقلم

لأبدع . . لأبدع . . أن معنى ذلك هو تكريم الله عز وجل  
على البشر باعطائهم آتة أخرى يفقهون بها أنه قادر أن  
يعلم من لدنه بغير ما عرفوا من الوسائط من شاء ما شاء  
إذا شاء . . وأن يجعل غير القارئ قارئاً ، ولكن يقرئه بالروح  
صحفاً ربانية قد أنزلها الله على قلوب البشر بأساليب  
شتى أجلها وأعلىها هذا الأسلوب



ما أجل هذه العناية وما أجدر « خديجة » بالسرور  
الذي ليس فوقه سرور . . ولكن هل عرفت هذا السر  
الرباني تماماً ؟ نعم كان قلبها القوى خليقاً ألا يفزع أمام  
هذه الحادثة الغريبة في ظاهرها ، بيد أنها كانت محتاجة  
أن تطرق تفسير هذا السر وهذا المظهر الجديد من أبوابه



## الفصل الثامن عشر

### الدلة العقلية





## رسالة ربانية

كان محمد ( صلى الله عليه وسلم ) قوى القلب جدا تدل على ذلك سيرته كلها من اولها الى آخرها . . ولكن مهما قوى قلب أمام الحوادث المعتاد وقوع أمثالها بين الناس فلا يدل ذلك على أنه لا تأخذه روعة أمام صوت غير بشرى ، يهيب به الى أمر غير حسى . لذلك لا ينبغي أن نستغرب الروعة التى أخذت لاول وهلة ذلك القلب القوى العظيم ، قائلة دعى من لدن الحق بواسطة الروح الى وظيفة تنوء بحملها مئات القلوب ، اذ يجب - بحسب حدودها - قلب السنن . .

اى لعمر الحق لا غرابة فى روعة تنقض الظهر ، اذا حدثت لمن نودى هذا النداء بهذا الامر ، وبديهي احتياج هذا المأمور الى شرح الصدر ، والتأييد ورفع القدر ، ولا بدع اذا ضمن له كل تأييد من اراد أن يكون قلبه محلا لنزول وحيه الاعلى

نعم أملت الروعة بقلب صاحب « حراء » لما نزل عليه الروح بما نزل به عليه ، وقد صرح لخديجة بذلك ، وقال لها « لقد خشيت على نفسى » ولكن التأييد محيط به ، والايناس يشيع من حوله . . وناهيك أن فى منزله الذى اليه يثوب روحا شريفا كان الله قد أوجده خاصة لتأييده وشرح صدره بادىء بدء هو روح السيدة « خديجة » لم تكن هذه السيدة أقوى منة من بعلمها الكريم ، ولكن هو واجهته روائع الجلال مواجهة ، فأخذته بين حيرة

وشوق وخشية عجز عن القيام بالوظيفة . واما هي فسمعت بالامر سمعا ، ووجدت للتفكير فيه مجالا

ولو فوجئت امرأة بما فوجئت به هذه السيدة من هذا النبأ العظيم ، وكان ينقصها ما حلاها الله به من الفطنة وبعد الادراك وسلامة الفطرة وما اعطاها من قوة التمييز فى وزن الامور ومعرفة مقاييسها لتراخت مفاصلها ووهت قوتها امام هذا الحادث الغريب . ولكن العناية الازلية التى لها اليد فى اظهار هذا المظهر الاعلى قد اتمت العمل من اوله الى آخره ونسقته على احسن منوال ، فلا عجب فيما رايناه فى هذه السيدة من الصفات التى تساعد على استقبال امور عظيمة لأنها خلقت لتكون زوجة لذلك الرجل الذى سيصادف اعظم الامور ويأتى بها

### امل وخوف

فكرت « خديجة » فى هذا الامر ، واخذت تسائل نفسها بنفسها ، وللأمل ههنا وجه وللخوف وجه . . فالامل يقول لها ان الامين لصادق وان روحه لزيكية قوية لا سلطان لروح الشر عليها ، والروح الذى جاءه انما بلغه باسم ربه انه اصطفاه رسولا والله على هذا قدير ، وباختصاص من شاء بما شاء جدير ، وأى شئ يمنع رب العالمين اذا اراد ان يتكرم على هذا البيت بانزال وحيه فيه ، فيغدو بعد الان مشرقا لا تضاهيه المشارق ، يفيض النور على القبائل والشعوب . . انت اللهم على هذا قادر اذا اردت ولا مانع لما اعطيت ! والوجل يقول لها ما هذه الحال التى اخذت حبيب قلبى فراعته ، انى لاخشى ان يكون امرا جسمانيا بحتا كما قد يعرض لبعض الافراد . . انى لاخاف ان يصبح هدفا لرمى الاضداد . ولكن سرعان ما غلب الامل على الرجل ، والمنة على الضعف . . وسرعان

ما تبذرت لها وجوه الأدلة على أن ما أتى بعلمها الكريم هو بشير خير عظيم ، ومقدمة فلاح عميم . . وكانت أدلتها على ذلك عقلية ، وقليلة . . تقدمت العقلية منها على الثانية حينما قال « محمد » ( صلى الله عليه وسلم ) لخديجة : « لقد خشيت على نفسي » قالت له : « كلا والله ما يخزيك الله أبدا . . انك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، وتصديق الحديث ، وتؤدي الامانة »

ان هذا الكلام الذي صدر منها على الفور هو نتيجة معرفة سابقة . . هو نتيجة تفكير حكيم قد أعطى الثمرة سريعا . هذا الكلام الوجيز يؤلف استدلالا عقليا من أعظم الاستدلالات ، فانه أتى ساذجا صريحا لا غبار عليه من التكلف ، ولا شيء منه لا يستسيغه الذهن ، هو قياس باهر النتيجة ، مطوى بعض الحواشي ، ومن أبدع الاقيسة نظما ، ومن أجملها وقعا . . بيد أن الافهام كدأبها في التفاوت ، وعلى سنتها في التخالف ، لا يستغنى كثير منها عن تشريح هذا القياس . . فحينئذ يلوح لها انطواء الفوائد الفزيرة ، في هذه الكلمات الوجيزة . . وتعلم من قريب ان الحكمة بيد الله يؤتيها لمن يشاء

( ١ )

يخرج المتأمل في حديث هذه السيدة بأن النوع الانساني محل لعظيم تجليات رب الانواع كلها . ولذلك يجب كل ما يؤدي الى تسامي هذا النوع ويخلق الاسباب لذلك ويأخذ بيدها لتتغلب على ما أظهره بحكمته التي لا نعلمها من أضيادها

( ٢ )

ويخرج من كلامها بأن الله عز وجل مطلع على أعمالنا

ومجاز عليها ، وانه يجب منا أعمالا ويكره أخرى ، وان الذي يحبه منا على حسب تفكيرها هو الاستقامة ومساعدة بعضنا لبعض ولا سيما مساعدة الضعفاء

( ٣ )

ويخرج منه أن من يفعل الخير لا يأتيه الا الخير . والخير الذي نعبر عنه بهذا اللفظ قد جاء في عبارة السيدة بتفصيل أعمال كلها من باب مساعدة الانسان للانسان ، فهذه المساعدة في نظرها كل خير او هي كل الخير فهل يكافئ الله فاعل الخير بغير الخير ؟ ان هذا على حسب تفكيرها لا يمكن أن يحدث

( ٤ )

ونتيجة قياسها او اقيستها ان هذه رسالة ربانية فيها الخير لا الضير ، وان الله عز وجل سيتفضل بتأييد هذا المأمور في حمل هذه الامانة على ثقلها وصعوبة تاديتها لقوم ينكرونها ولا يعرفونها

### حكمة السيدة خديجة

ان محيط جلال الله الذي ليس له حد ، ولا تبلغ العبارات - مهما كانت بليغة - شيئا من حقيقة التعريف به حق التعريف . . وانما هي لتستعين النفس بها على بث حبها به له عز وجل وتمجيدها اياه ويزداد شوق النفوس الى الكمال ، وتعبدتها لذلك الجلال . لقد عزت صفات رب الكون عن أن ترسمها اللغات ، كما عزت ذاته عن أن تحدها الجهات ، وان حقيقته لهي فوق المجاز والاستعارات لكن الانسان خلق عظيم الشوق الى تصور ربه ، وغير صبور عن الاشارة الى وصفه ، وليت شعري انى يبلغ الواصفون صفة من كنه محتجب في خزائن الغيب الاعظم ؟

قد نفذ صبر الانسان في هذا الامر من قديم الزمان ،  
واقدم على وصف ربه فلم يجد غير الاستعارة حيلة  
فوصفه بما يتصف به الانسان نفسه ، ولذلك وقع تناقض  
كثير في اوصاف الواصفين لان رب العالمين غير حادث  
ولا تشبهه الاحداث تعالى عن ذلك علوا كبيرا ..

ولقد ظهر بين البشر رجال منهم ، اتهم الارواح  
وكلمتهم من عند الله فأيد كلام الله بواسطة الروح مادي  
عليه الناس من الاستعارة ، فأصبح هذا الامر عاما لافرق  
بين الناس فيه الا فيما اختلفت عباراتهم

والافكار المستقلة تؤدي الى قبول هذا الاسلوب أيضا  
لان التفاهم في هذه الابواب لا يستغنى عنه ، ولا يمكن  
تحقيقه الا بالعبارة

الى الله سبحانه يرجع كل شيء ، فهو انشا الانسان  
على هذا المثال ، وهو علمه ما قد عرفه الى الآن ، وخلاصة  
ما عرفناه من ظواهر التكوين ان البارئ المصور عز وجل  
لما أراد ان يكون هذا الانسان مميزا عليما ، اظهر الاشياء  
امامه مبنية على التضاد ، وجعل تمييز الاشياء باضدادها،  
وأودع فيه ضدين جعل عليهما مدار سيرته كلها في حياته  
هما الاستحسان وضده ، وجعل مع الاستحسان الشوق  
والحب ، ومع ضده النفرة والبغض . واقتضى ناموس  
التضاد الذي عليه مدار تمييز الانسان ان يختلف افراد  
هذا النوع في الاستحسان وضده ، فكثرت اسباب  
خلافهم فنشا بينهم الضدان ، المسمى أحدهما خيرا والآخر  
شرا . واحتاجوا الى جواذب تجذب الخير ودوافع تدفع  
الشر ، فرجعت كل معارفهم الى معرفة هذه الجواذب  
والدوافع . ومن نما منهم علمه بها وسما عمله على موجب  
هذا العلم سموه حكيما

وهل يجوز ان يكون بعض بنى البشر حكماء والبارئ

غير حكيم ؟ كلا ، ثم كلا .. بل ليست حكمة الانسان  
الا من الله ، والله هو العليم الحكيم

نعم ، بيد أننا نفقه معنى حكمة الانسان لاننا نميزها  
بضدها وليس لعلم الله وعمله وارادته جل جلاله من ضد  
انظر تجدنا نعرف الاسرار في كل دقيقة من الدقائق  
التي يؤلف الانسان منها شكلا من الاشكال ، لان الانسان  
انما يصنع ما يصنع للاحتياج والاستفادة ، واما الذي اراد  
ظهور الاشياء بهذا التنوع ، فلم يرد هذا لحاجة أو جدوى  
تعود عليه . ثم انظر تجد أننا نسمى ما يصنعه الانسان  
لغير فائدة عبثا ، ولا نسمى عمل المستغنى عن الفائدة عبثا  
.. مع أننا لا نرى فائدة في عمله لاله لاستغناؤه وتقديسه ،  
ولا للمصنوع من معدن ونبات وحيوان وغيرها

### حكمة الله في كل شيء

فاذا أمعنت النظر يظهر لك أننا لا نستطيع أن نعلم  
ما هي حكمة الله في ظهور الاشياء على ما هي عليه ، ولكن  
نقص هذا العلم لم يمنعنا عن القول بأن له حكمة في كل  
شيء ، وتعلم من هذا وضوح عجز العبارة في كشف خفايا  
هذه الحقائق مع عدم الاستغناء عنها

ثم اذا أعدنا النظر الى علاقة هذه الظواهر بالانسان ،  
يبدو لنا أمر يحمل على مزيد التفكير والتذكر ، ذلك أن  
كل شيء منها يفيد الانسان حكمة اذا تصدى لقراءته على  
صفحات الاعتبار ، ان الانسان ليرى اذا تأمل نظاما بديعا  
في هذه الظواهر ويرى له نصيبا في كل شيء منها

فمن هذا الوجه ، قد يصح لنا القول بأن من جملة حكيم  
الله تعالى في هذه الظواهر تجلي آلائه وكرمه بجعل علاقة  
النفع والانتفاع بين هذه الانواع والصنوف التي لا تحصى  
وبين هذا الكائن الصغير الجرم

هذه العلاقة ظاهرة يكاد يراها كل من تأمل في استفادتنا معشر البشر من كل هذه الظواهر . . . أما محبو الحكمة ، فيعمقون نظرهم ويتلمسون الاسرار في تشكيلاتها وتالفاتها على هذه الوجوه والاوزاع . ولو فرضنا انها جاءت على غير هذه الوجوه لتوجهت انظارهم الى استجلاء فوائدها أيضا لانها كلها من الله . . . وما من الله لا يكون عبثا بل يستفيد منه الانسان حكمة أو شيئا آخر ، فكان الانسان أكرم من كل هذه الظواهر ، وكأنه هو المقصود بأن تنكشف له الحكم والاسرار الربانية

هذا هو الاساس الذي أقيمت عليه قواعد حكمة الانسان ، وهو مبدأ سيره لمعرفة حكمة الله الحكيم الاعلى جل جلاله وتقدست أسماؤه

حكمة الانسان في الحقيقة هدية ربانية يختص بها الخالق الذي أراد ان يكون الانسان سليم الفطرة ، حاد الفكرة ، فهو يكون كثير الذكر ، قليل النسيان ، والكائنات كلها صبر ، وتعليم لمن تذكر . وليست حكمة الانسان تلقينا يقدم لكل امرئ ، ويؤتاه كل أحد في كتاب يكتب ، أو خطاب يخطب ، لكن مع انه لم يكن أحد مستعدا أن ينال الحكمة ، نجد الحكمة ذات بركة شاملة تزور بيوت غير الحكماء أيضا فتملؤها فوائد كثيرة من غير أن يشعر أربابها بحركاتها وحركات حاملي لوائها

كانت السيدة « خديجة » ذات نصيب من هذه الهبة العليا الربانية هبة الحكمة ، وقد رأى القارئ أنفا شيئا من حكمته وجميل تفكيرها وتصرفها ، ونحن هنا نوضح ذلك ، ونزيد المقام حظا من ذلك الجمال :

(١) فهي رأت ان النوع الانساني محل لعظيم تجليات رب الانواع واته سبحانه يجب كل ما يؤدي الى تسامي هذا النوع . وحق ما رأت ، فان اظهار هذا النوع على

هذا المثال هو أوضح ضياء يرى به المدلج أن الله سبحانه أحب أن يعرف فافتضت ارادته ظهور هذا النوع مستعدا للمعرفة وعظيم الشوق اليها . والانسان في ظهوره جسما وروحا وتفاوت افراده بالارواح تفاوتا عظيما قد أصبح دون ريب من اكبر الآيات في هذا الباب على ذلك الشأن العظيم من المراد الالهى ، وأضحى مجمع أسراروكنز حقائق لايمارى فيها الامن جعل النسيان بينهم وبين الملكوت الاعظم حجابا . .

### العوامل المساعدة للرقى

ومن المشاهد أن البارئ عز وجل يخلق الاسباب المساعدة على ترقى هذا النوع ويأخذ بيدها لتتقلب على ما اظهره يحكمته التى لا نعلمها من اضدادها . اننا قد شاهدنا ماجرى ويجرى من الدفاع والجدال بين جواذب الانسان الى ظلمه الجهل وجواذبه الى مشارق العلم ، فوجدنا الغلبة للثانية على الاولى . . وحسبك أن الانسان بعد أن كان كسائر الحيوان لا يفقه غير حاجته الى طعام يصد به الم جوعه ، ومساء يرد به الم عطشه ، أصبح يعرف الفواض من أمور الكواكب ، ويعتصب من حركاتها ما هو اقل من لمح البصر حتى تسنى له بذلك أن يعرف متى يكون الخسوف والكسوف ، ددع عنك معرفته بما فوق الثرى وما تحته ، ودع عنك توصله الى استخدام الروح السارى فى هذه الظواهر الدنيا ، نغنى به الكهرباء ودع عنك استفادته من « الارواح » العليا وتقله بواسطتها الانبياء البعيدة والمحجوبة

(٢) ورات السيدة « خديجة » أن البارئ عز وجل مطلع على أعمالنا ، ومجاز عليها ، وأنه يحب منا أعمالا ويكره أخرى . . ومن تذكر ما قلنا فى مقدمة هذا الفصل



يقرف أن مثل هذا التعبير يقصد به تصوير مفان من كمال الله تعالى ، فهو سبحانه محيط بالكائنات كلها ، وقد جعل لها سننا من جملة ما أن جعل أفراد النوع الانساني محتاجين الى ارشاد بعضهم لبعض ومعاونة بعضهم لبعض ولا تنس أن الله سبحانه قضى بالتضاد ليميز به الانسان فمن قرب من سننه محبوب عنده ، ومن بعد عنها مكروه لديه . هيهات ! هيهات أن نعرف ما معنى محبته سبحانه وكراهيته لانه سبحانه لا ضد له ، ولكن هذا العجز لا يثنينا عن الاعتقاد بأنه يحب ماينفعنا ويكره ما يضرنا كما هو مقتضى حكمته ورحمته بحسب ايماننا ، وإنما خلق الضار والمكروه مع النافع والمحبوب ليتم ناموس التضاد الذي قضت به حكمته

ومن أمن النظر في كل ماسلف هنا ، يتبين له أن في مقدمة المحبوب لديه مساعدة بعضنا البعض ولا سيما مساعدة القوى للضعيف . ومن يرزق هذا الروح لا يكون الا سليم الفطرة ، طيب القلب ، لا يتبرم لنقص حظ ، ولا يتعالى بزيادة نصيب ، فلا يكون الامحوبا ثأيه المساعدة من قبل عالم الغيب وعالم الحس والشهادة

(٣) على هذا ترى هذه السيدة أن الله سبحانه لا يكافي فاعل الخير بغير الخير في هذه الحياة ، واهل الديانات يقولون هذا القول باعتبار ما يصادف المرء في الحياة الثانية التي انما تكون لنيل الجزاء ، وأما في هذه الحياة فمنهم من يذهب هذا المذهب الذي ذكرناه ومنهم من يقول ان فاعل الخير يتلى في هذه الحياة بالشروع (١)

ونحن لا ينبغي أن ننسى أن مذهب هذه السيدة مشوق لفعل الخير لأن المجازاة عليه في هذه الحياة والحياة الاخرى

(١) الصواب انه قد يتلى بها ، ولا يكون فعله للخير سببا مباشرا لها

مما يزيد محبيه حبا فيه . وأليه اذهب ، وبه اثق ، ولا  
هجرة بمن يشذ عن قاعدة هذا المذهب ممن ظاهرهم الخير  
والله أعلم بسرائرهم

هذا شيء من التفصيل لما جاء مجملا في حكمة السيدة  
« خديجة » ولم ترغب الزيادة على هذا المقدار خشية  
سأم القاريء ، ومنه يعلم أن هذه الاستدلالات  
العقلية كافية لمن كان له قلب سليم كقلب سيدتنا  
أن يعرف معرفة تدفع الريب أن الروح الذي وافى  
معدن الخير محمدا « صلى الله عليه وسلم » أن هو  
الروح خير وسلام ، وفلاح ونعمة وأكرام ، وذلك فضل  
الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم



## الفصل التاسع عشر

### الدليل النقي



## أدلة قاطعة

اقتداء الناس بعضهم ببعض أمر قد ألفت طباعهم كثيرا . . وربما كان غريزة من غرائزهم ، ومن مادة تصورهم ، إذ رأيناه عريقا في مرافقة الأجيال ، والتنقل في الانسال ، وموغلا في الرسوخ والاستقرار ، والدوام والاستمرار ، لا يزعجهم شيء عنه ، ولا يفصل بينهم وبينه فاصل

هذا الاقتداء نفع البشر كثيرا ، وأضر بهم كثيرا ، فاما نفعه إياهم فلأن الأكبر سنا ، والأكثر فهما ، والأشد قوة ، والأغزر تجربة ، يجعلون المقتدين بهم يتدثرون من حيث انتهوا هم ، ويمهدون لهم مالا يستطيعون أن يمهّدوا لأنفسهم . . ولو بقي الطفل والفنى والضعيف والفر خالين من طبيعة الاقتداء لراحت أكثر التجارب والاختراعات والتأملات والاعمال العظيمة سدى . ولولا الاقتداء لما تعددت الاعمال والصناعات ، ولا كثرت البدائع ، ولا ارتقى التمدن ، ولا نما العمران ، ولا سما النظام . وأما أضراره بهم فلأنه ساق أحيانا الى الاقتداء بالجاهلين والمفسدين ، ووقف أحيانا بأقوام مع ما سن لهم أسلافهم وقفة الصخور وجعلهم يحرمون ما يأتى على أيدي الحكماء من الهدى متى خالف ماعرفوا من قبل ، وأن أصبح ماعرفوه منكرا لدى أهل زمانهم أجمعين

البحث عن نفعه وأضراره ، ووضع الموازين للدرجات فيه ، لا قرابة بينه وبين موضوعنا ، ولكن اتخاذ الناس بغض كلام الآخرين من جملة الأدلة هو الذى حملنا أن

نتحدث عن وصف عراقتة ، وبيان أن بعضه نافع ، كما  
وقع للسيدة « خديجة »

### ورقة بن نوافل

كان للسيدة « خديجة » ابن عم شيع من الاعوام ،  
وارتوى من حديث الأنام ، قد تعلم العبرانية وقرأ بها  
الاسفار ، وعرف بها الاديان ، ورضى بدين ابن مريم  
( عليه السلام ) دينا ، وهو « ورقة بن نوفل »  
هذا الشيخ الجليل كان جديرا أن يكون اماما لخديجة  
تتخذ قوله حجة ، وهدية معتصما ، لأن هناك دلائل كثيرة  
تدفع عن نفسها الريب بأن هذا الرجل أعلم منها بهذه  
الامور ، وأنه لا يصدر عنه الا النصح لها . . فهو بالدرجة  
الاولى ابن عمها بل بحسب السن مع القرابة هو في مقام  
أبيها ، فلو أن ورقة غشاش مخادع لما كان منه الغش  
والخداع لبنت عمه فكيف وهو مستمسك اذ ذاك بدين  
ذلك الانسان المملوء قداسة الذي كان اكبر همه حث الناس  
على التحاب ونفع بعضهم لبعض ، ونهيهم عن التشاحن  
وايذاء بعضهم لبعض . . وهو فضلا عن قرابته ، وسمو  
التعاليم التي تثقت بها نفسه ، كان في نظر خديجة سامي  
الهمة جدا . ذلك ما حملها على الاسراع اليه لتقص عليه الخبر  
وترجع في هذا الامر الى علمه ، وأخذت معها بعلمها ليقص  
هو نفسه عليه ما رأى . .

كان « ورقة » بحسب ما قرأ وعرف . . مؤمنا بأن  
الهيكل البشري ليس سوى مظهر لشيء يحل فيه هذه المدة  
القصيرة باذن الله وهو الروح ، وأن للروح مظاهر غريبة في  
بعض الهياكل ، وأنه توجد أرواح من شأنها الاجتنان عن  
الحس والعيان تتمكن من الانسان من حيث لا يشعر ،  
صنف منها يحب أن يجذبه الى سبق الكمال ، وصنف

منها يجب أن يلقي به في حضيض البهيمية ، يقال في العربية  
للأول ملائكة وللثاني شياطين

كان مصدقا بكل هذا ومؤمنا أيضا بأن بعض الأرواح  
الذين هم الملائكة يختصهم الخالق المصور بمزيد من  
الخصائص ويجعلهم نواميس أى وسطاء الوحي الأعلى  
للذين يريد سبحانه أن تكون مراتب الروح عندهم سامية  
جدا

كان قد قرأ عن الأنبياء ، وعرف مجيء الأرواح اليهم ،  
وعرف أنه يظهر أنبياء كذبة وأنبياء صادقون ، وأن لهؤلاء  
وهؤلاء علامات . فنحن لما سمعنا ذهاب خديجة الى هذا  
العالم المسيحي خطر ببالنا أنه لا يكون سهلا تصديقه بقدسية  
الروح الذي أتى محمدا ( صلى الله عليه وسلم ) لأن يوحنا  
الرسولي يقول في رسالته الأولى « أيها الأحياء لا تصدقوا  
كل روح ، بل امتحنوا الأرواح هل هي من الله ، لان أنبياء  
كذبة كثيرين قد خرجوا الى العالم . بهذا تعرفون روح  
الله . كل روح يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء الى  
الجسد فهو من الله ، وكل روح لا يعترف بيسوع المسيح  
أنه قد جاء في الجسد فليس من الله » ولكن الذي خطر  
ببالنا أن وقوعه صعب قد رأيناه أمرا واقعا فان ورقة  
بعد أن سأل بعل ابنة عمه بضع أسئلة قال له : هذا هو  
ناموس موسى أى الروح الذي جاءه والظاهر أنه لم يقل  
هذا القول ، ولم يصدق هذا التصديق الا بعد أن أجرى  
الامتحان الذي أوصى به يوحنا الرسولي وظهرت له العلام  
الدالة على أن الروح من الله على حسب ما تعلم من الكتب  
نحن لا ندعى العلم بتفسير هذه الكلمات التي ليوحنا  
ولا طريقة الامتحان التي أشار بها ، ولكن نظرا أن ذلك العالم  
القريب من ذلك العهد بالنسبة الى زماننا هذا كان لا يجهل  
هذا التفسير . وكذلك لا ندعى العلم بتفسير قول موسى

بُنِي اسرائيل « ان نبيا مثلى سيقم لكم الرب الهكم من اخوتكم » ولا تفسير الاصحاح الثانى والاربعين من « اشعيا » ولكن يظهر لنا ان ورقة قد فهم من قول موسى هذا ومن اشعيا انه سيكون نبى من العرب يكون مقامه حوالى سلع ذلك الجبل المعروف فى البلاد العربية . وهذا نص ما فى اشعيا :

« ١ هوذا عبدى الذى اعضده مختارى الذى سرت به نفسى وضعت روحى عليه فيخرج الحق للامم ٢ لا يصيح ولا يرفع ولا يسمع فى الشارع صوته ٣ قسبة مرضوضة لا يقصف وفتيلة خامدة لا يطفىء ، الى الامان يخرج الحق ٤ لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق فى الارض وتنتظر الجزائر شريعته ٥ هكذا يقول الرب خالق السموات وناشرها ، باسط الارض ونتائجها ، معطي الشعب عليها نسمة والساكين فيها روحا ٦ انا الرب قد دعوتك بالبر ، فامسك بيدك ، واحفظك واجعلك عهدا للشعب ونورا للامم ٧ لتفتح عيون العمى ، لتخرج من الحبس المأسورين من بيت السجن الجالسين فى الظلمة ٨ انا الرب هذا اسمى ومجدى ، لا اعطيه لآخر ، ولا تسبيحى للمتحوات ٩ هوذا الاوليات قد انت ، والحديثات انا مخبر بها ، قبل ان تثبت اعلمكم بها ١٠ غنوا للرب أغنية جديدة تنسبحة من اقصى الارض ، ايها المنحدرون فى البحر وماؤه ( ٤ ) والجزائر وسكانها ١١ لترفع البرية ومدنها صوتها الديار التى سكنها قيدار . لتترنم سكان سلع من رءوس الجبال ليهتفوا ١٢ ليعطوا الرب مجدا ويخبروا بتسبيحه فى الجزائر »

قد قلت واعيد قولى اننى لا ادعى العلم بتفسير هذه الكتب ، ولكنى لما رايت ورقة قال لزوج بنت عمه : هذا هو ناموس موسى بحثت عن منشأ قوله هذا فوجدت فيما



ذكرت آنفا من قول موسى وأشعياء ما يشبه أن يكون مأخذاً فمن أراد أن يقول لي : لا يفهم من قول موسى وأشعياء ما فهمت لا يجدني أسفاً على عدم إصابة ظني بخصوص ما حمل ورقة بن نوفل على قوله هذا فإنه يجوز أن يكون قد عرف ذلك بغير ما ظننته . ولست في هذا المقام بذى حجاج ومناظرة ، أن أنه ههنا الاكاتب سيرة اجتهد باستقصاء فروع حوادثها وتفسيرها على قدر فهمي ومبلغ ما وصلت اليه من معلومات

### التنبؤ بالمستقبل

وههنا مسألة جليلة لا نستطيع مفارقة هذا المقام من غير أن نوضحها ، ونسهل فهمها على القارئ وهي أن الأرواح قد تعلم بعض الأشياء قبل وقوعها إذا كشف الله تعالى لها عنها بواسطة النواميس أو بواسطة غيرها

هذا المعنى كان بنو إسرائيل يقولون به كما كان كثير من الأمم الأخرى تذهب اليه ، وقد جاءت كتبهم حاملة سلسلة من أخبار هؤلاء البشر الذين كان الروح الإلهي ينزل عليهم فينبئهم بما سيكون . وتبتدىء هذه السلسلة المهمة في كتبهم بحديث نوح الذي أنبئ فأنبأ بأنه سيكون طوفان ، ويموت كل من على وجه الأرض ، وهدى إلى صنع الفلك فصار الطوفان ونجا هو وأولاده ونساؤهم وتناسلوا بعد الطوفان ، ثم تفرقوا ، ثم اصطفى الله من هذه الأنسال إبراهيم (\*) وكان ينزل عليه روحاً من عنده . وشاخ إبراهيم وزوجته سارة من غير أن يصير لهما نسل ولكن حبلت منه أخيراً هاجر جارية زوجته ونزل عليها الروح

---

\* إبراهيم بن تارح بن ناهور بن سروج بن رعو بن نالغ بن عابر بن شالح بن ارفكشاد بن سام بن نوح « كذا في سفر التكوين »

وقال لها سيكثر نسلك فلا يعد من الكثيره فولدت له اسماعيل ، ثم انبىء أن زوجته سارة ستحبل وتلد بعد هذه الشيخوخة وطول هذا العقم فولدت له اسحاق ، وانبيء أن نسل اسحاق سيكون كثيرا ايضا . وغضبت سارة على هاجر فطردتها وغلامها ، فنزل على هاجر الروح وقال لها لا تخافى لان الله قد سمع صوت الغلام وسيجعله امة عظيمة . وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في البرية ، بركة فاران التى قال عنها موسى أن الله سبحانه ظهر فيها وتأخذ كتب بنى اسرائيل بعد ذلك فى سرد اخبار من تناسل من اسحاق بن ابراهيم واما اخبار من تناسل من اخيه اسماعيل فلا تذكرها فابن اسحاق يعقوب وهو اسرائيل كان الروح ينزل عليه ، ويوسف بن يعقوب كان الروح يجرى اليه

ويوسف هو سبب مجيء بيت يعقوب الى مصر ، وهناك تناسلوا وكثروا حتى ولد فيهم موسى صاحب الشريعة الشهيرة . هذا ايضا كان تنبأ ، وينزل عليه الروح ، وهذا قال لقومه « ان نبيا مثلى سيقم لكم الرب الهكم من اخوتكم »

واسس موسى لبنى اسرائيل ملكا على الوحي الروحى وخلفه بعد موته تلميذه يوشع بن نون ، وبعد موت يوشع بدأ الفساد والضعف يحل بهم ثم انتشلهم داود وسليمان وتعظم الملك فى ايام سليمان ثم طرات عليه بعده الطوارىء حتى زال . ولم يخل زمان من ازمنة ملوكهم وبعدها من نبى أو عدة انبياء حتى نزل الروح اخيرا على مريم ام عيسى وبشرها بأنه يكون لها ولد من غير أن يمسه بشر . وقد ولدت مريم عيسى على هذه الصورة التى بشرت بها وصار نبيا ايضا ولكن قومه كذبوه ولم يصدقوه الا قليل . وقد

كذبوا من قبله اكثر الانبياء الذين كانوا ينذرونهم بزوال الملك اذا ظلوا على الفساد

انا لا اعرف لماذا يكذب بعض الناس أشياء هم يؤمنون بمثلها ، أو يصدقون أشياء يكذبون مثلها . هذا أمر وقع كثيرا ويقع دائما أمام أعيننا وأسماعنا فهل التصديق والتكذيب بحسب وزن الاشخاص ، وما هو الميزان في الاشخاص ؟ أم بحسب وزن العقل وما هو سبيل العقل في التصديق والتكذيب بمثل هذا ؟

أنا أرى أن من آمن بسعة قدرة الله ، وبعجائب صنع الله ، ونفذت بصيرته لرؤية آثار روح الله ، وآمن بمجيء ناموس الله لعبده موسى ، لا يتبغى له أن ينكر قدرة الله في اخراج عيسى من مريم بغير واسطة بعن ، ولا يجدر به أن يكذب نزول روح الله عليه كما نزل على أخيه موسى . ومن آمن بعجائب موسى وعيسى ابني اسحاق ونزول روح الله عليهما لا يتبغى له أن يستبعد نزول هذا الروح على أخ لهما من بنى اسماعيل

هذا أقوله للذين صدقوا بما هنالك من العجائب والفرائب الموسوية والعيسوية ، وأما الذين لا يصدقون بهذين ولا تلك ، ولا يحكمون الا الحس والعقل ، فهؤلاء أمضى بهم الى التجارب والمشاهدات وأنا واثق الا نعدم في خزائنها كثيرا مما يؤيد أن بعض البشر يخبرون عن بعض الحوادث قبل وقوعها

فان قال لى هؤلاء نعم قد يوجد أناس على هذا النحو ولكن ليس هذا سبب أخبار من روح كما تقولون ، قلت لهم اذا اتفقنا في ثبوت الاصل فلا ضير علينا بعد ذلك بالاختلاف في الاسباب وأسماؤها

وان قالوا لى ما الفرق بين هؤلاء الذين قد تراههم في أزمنتنا هذه من هذا القبيل وبين من تحدثوننا عنهم ؟

قلت لهم ان هذا الفرق ظاهر لأن الاختصاص كله من الله فهو يعطى انسانا معرفة بعض الوقائع الآتية ويجعله شارعا وقائد امم ومؤيدا بتأييد عظيم لا تحيط به العبارة ، ويعطى انسانا آخر مثالا صغيرا من هذه المعرفة من غير أن يجعله شارعا وقائد امم ومؤيدا بتأييد عظيم ، فالاول يقول أنا نبي أو أنا رسول ويظهر الله صدقه فيما يقول ، والثانى لا يستطيع أن يقول هذا وان قاله لا يظهر قوله حقا ، فهل ينكر هذا الفرق الكبير ذو بصيرة لا يعدوها الاخلاص الى الله والادب مع مجالى أمره ، ومظاهر سره ؟

لقد كان ورقة على ما ظهر لنا شديد الاخلاص متعمقا في علم الروح ومعرفة النواميس الالهية وأخبارها .. وكان على نور فراصة من ربه وسرقة استطلاع ، فلما سمع هذا النبا الجديد تفرس في صاحبه ، وتذكر ما نقل عن الانبياء وأصحاب النواميس من قبل ، وتذكر قول موسى لقومه بنى اسحاق « سيقم الله نبيا مثلي من اخوتكم » وما اخوتهم الا بنو اسماعيل فقال له هذا هو الناموس الذى نزل على موسى

ثم تذكر ابناء الناس للانبياء مع قول أشعيا « لترفع البرية صوتها ، الديار التى سكنها قيذار » وقيذار هو ابن اسماعيل ، وقوله « لتترنم سكان سالع » وسالع أو سليم جبل على مقربة من « يشرب » من أشهر جبال الجزيرة العربية ، فلاح له أن قريشا ستضطرب هذا النبي الى مغادرة بلده « مكة » فقال له « ليتنى فيها جذعا - أى شابا - أذ يخرجك قومك »

وبعد فترة قصيرة توفي ورقة .. أما « خديجة » فتمسكت بكلام هذا الرجل ايما استمسك ، وأضافت تكهنه الى ما قد عرفته هى بدلالة عقلها وتجربتها فأصبح ايمانها بنبوة بعلمها ورسالته الى الناس أثبت من الرواسي

## الفصل العشرون

### الديمان وغوارو العادات



## ميراث الايمان

قال بعض الناس في تلك الايام لاجب اذا آمنت « خديجة » ببعليها فان رابطة الزوجية تستدعي مثل ذلك ولكن ذا القدرة العظيمة قد أتى هؤلاء القائلين بما يعارض مزاعمهم ، اذ بادروا بعض من سمع هذا النبأ بالايمان به . ولم يبق المصدق به « خديجة » وحدها فاضطروا أن يخترعوا اسبابا أخرى للايمان به

حرب فكرية قامت أمام هذا النبأ الجديد عند شيوخه ، ارتجت له مكة وما حولها ، وانقسمت الافكار ، وتباينت الانظار ، وفي مثل هذه المواقف يعرف الراجحون بحسن الفطرة ، وقوة الفطنة ، اذ يكونون من السابقين في رؤية الدقائق ، والوصول الى الحقائق

قال نفر منهم :

« لقد عرفنا محمدا طول هذه السنين فما عرفنا الكذب في قول له ، ولا عرفناه محبا للخداع . . وقد قام اليوم يخبرنا بأمر وقع له ليس هو بدعا من الامور ، ولا هو بضارنا شيئا . اتانا يخبرنا بأمر يشبه مانسمعه عن أمر موسى نبي بني اسرائيل ، ولم يكن أمر موسى الا نافعا لقومه فلعل الله سبحانه يريد أن يهدي الينا نفعا بواسطة هذا الرجل الصادق الامين منا »

وقال نفر :

« يقول صاحبنا ان روحا اتاه وأوحى اليه ما أوحى ، ولا شيء من هذا يبعيد عن العقل اذا تأدب العقل ووقف أمام بحر القدرة الازلية الابدية وقفة العارف أن هذا بحر

لا حد له . ويقول انه أمر بتبليغ الناس هذا الوحي وما سيتلوه »

وقال البعض :

« ان هذه الدعوى عظيمة فان كان ما ادعاه حقا كان من العار العظيم والضرر الكبير أن نرد هدية ربنا عز وجل الذى اهدى الينا العقل من قبل ، وهو يعزز اليقون تلك الهدية بهدية أخرى ربما كانت من نوعها ، وربما كانت من نوع أعلى ، وهل يرد حامل العقل مثل هذه الهدية بعد أن يذيقه العقل طعم الرشد والمعرفة ويأتيه بروائح مايبه الخالق جل وعلا من صنوف المعارف ، وان كان ما ادعاه غير حق فان امده سيكون قصيرا لان لدينا عقولا ولا يضرنا حينئذ ظهور أمره »

وقال نفر :

« لماذا يدعى الصادق الامين هذه الدعوى ان لم تكن صحيحة ؟ هل فقد عقله ؟ كلا . . فائنا لانزال نرى صحته واعتداله على اتهمهما ، هل تغيرت أخلاقه ؟ كلا فان من الاخلاق مايرسخ مع كثرة الاعوام ، وقل أن يتحول الصادق عن صدقه . . كلا بل الامر جد ، والدعوى صدق ، وان لهذا الامر لناصرا من قوة ساقته - بعد أن عاش أربعين سنة - الى الاتيان بهذا الامر الغريب الصعب عليه ، وان. الايمان بقدرة الله تعالى ليدعونا الى اجابة هذا الداعى من لدنه، وان الاخلاص ليدفعنا الى اعلاء الكلمة التى تنزلت الينا فضلا من ربنا ورحمة ، انا به مؤمنون ! »

كان فى مقدمة هذا نفر أبو بكر ذلك الرجل الذى لم يعرف الى ذلك الوقت بعيب عند قومه ، وليت شعرى لماذا تجول الظنون وتحوم فى تلمس الاسباب لايمان أمثال هؤلاء الافاضل مع اتفاق العقلاء على أن الذى رسمنا



صورته من اتجاهات تفكيرهم هو المطابق لحكمة المعتدلين  
القائل ان « خديجة » انما آمنت ببعليها لانه بعليها هو  
في سعة من ظنه هذا اذا شاء . ولكن بما مهدنا له من  
المثل بايمان أبى بكر ، نرجو أن يكون انتفع بمعرفة أن  
طريقة إيمان « خديجة » كانت أسمى مما يظن

ان الذى آمن به أبو بكر ، ثم مئات ، ثم الوف غيره ،  
لا يجوز للعاقل المنصف أن يحرم زوجته العاقلة من شرف  
اتباع الطريقة التى آمن بها هؤلاء الافراد ثم الجماعات  
ان ظنون الناس تكون على حسب اخلاقهم وطبائعهم  
وتصوراتهم ، فالذين يصرون على ادعاء أن السيدة  
« خديجة » لم تؤمن بهذا الروح الجديد الا لان صاحبه  
هو بعليها هم اما جامدون في معرفة الاخلاق البشرية على  
شئ يستعيد العاقل بالله من تفاهته ، وهو القسم الردىء  
منها . واما أنهم مجبولون على العناد ، أو أنهم مستعظمون  
لتصديق الانسان بالامور العظيمة من غير أدلة وآيات

نحن لا نسوغ لانفسنا أن نعيب أحدا ممن كان حظهم  
قليلاً من علم اخلاق الناس ولا ندعى أننا نستطيع بالكلمات  
القليلة التى نقولها أن نغير آراءهم ونتمكن من اقناعهم  
ونودع في أذهانهم علما جديدا واسعا ، ولكننا نستطيع أن  
نذكرهم بأن اخلاق الافراد ليست على شاكلة واحدة ، بل  
منها ماهو في أسفل السفلى ومنها ماهو في أعلى العلى ،  
ومن الناس من يقلب عليهم الصدق والاخلاص مايملك  
قلوبهم ويجعلها بعيدة عن التصنع والرياء ، وعن الارتباب  
بالامور التى ليست غريبة عن محيط القدرة والحكمة  
والعناية الازلية ، اذا حدث بها المعروفون عندهم بالصدق  
والامانة ، ويجعلها قريبة من كل ما فيه تمجيد اسم الخالق  
جل وعلا وتعظيم مظاهر أمره وسره . وبعد هذه التذكرة

نستطيع ان نقول لهم ان سيدتنا هذه كانت من اهل هذا  
الخلق الجليل ، كما تشهد بذلك سيرتها . . ومتى تزحرج  
هؤلاء عن مركزهم في علم الاخلاق سهل عليهم ان  
يشتركوا معنا في معرفة أنه ليس محكوما على « خديجة »  
بالحرمان من الايمان الصحيح المبني على اسباب صحيحة  
لا على كونه بعلا

وأما المجولون على العناد ، والفروور والاعجاب ، فلا  
نتعجب بسماع اقوالنا اذ ربما أنت ثقيلة عليهم ، ولا نتعب  
انفسنا بمخاطبتهم اذ قد تأتى علينا ثقيلة . . فلهم دينهم  
فيما توقفهم عليه فطرتهم ، ولى دينى فيما تقتنع به نفسى  
وبقيت لى كلمة مع الذى يستعظم تصديق الانسان  
بالامور العظيمة من غير أدلة وآيات كثيرة . ان هذا معذور  
فى نظرى والتفاهم بينى وبينه سهل لانى لا اطلب أن يترك  
ما يؤمن به من نظريات ، بل أسايره فى الحديث وهى فى يده  
فنبلغ معه غاية حسنة تصلح أن تكون ملتقى لنا مهنما  
تسبعت حولها آراء أخرى لكل واحد منا

أنا أقول معك يا صاحبي ان الذى يطالبه غيره  
بالتصديق ، له أن يطالب هو بالادلة والآيات . . ولكن اذا  
سمعت بمصدق ولم تسمع قصة طلبه للدليل والآية فلا  
تحكم بأنه آمن من غير دليل وآية الا اذا كنت تعرفه من  
قريب وتعرف أن بضاعته كلها تقليد الآباء والمعلمين .  
أنت تعرف أن أبا بكر وأمثاله ممن صدقوا محمدا  
( صلى الله عليه وسلم ) لم يكن لهم آباء سبقوهم فى  
تصديقه ، ولا معلمون حملوهم على تأييده ، وتعرف أنهم  
كانت لهم عقول ناضجة متحررة ، والبابزكية فائقة ، فهل  
تظن أنهم صدقوا بغير آيات بينات ، وأدلة ساطعات ؟  
المشارب فى الاستدلال مختلفة واخشى أن يكون مشربك

فيه كمشرب الذين لا يعمدون الآية الا الامر الخارق للعادة ولذا رأيت الا ادع هذا المقام من غير أن احادثك بالآيات والخوارق بعد أن أسلفت طريقة « خديجة » على النحوين لتعلم كيف يمكن أن يكون ايمان كل مؤمن بمحمد ( عليه الصلاة والسلام )

### • الآيات والخوارق

إذا وقع شيء خارق للعادة لا يستطيع أحد حينئذ أن ينكر انه آية عظمى ، ولكن ما هي العادة ؟ .. وهل يمكن أن تخرق ( أى تخالف ) وهل وقع شيء من هذا ؟

يعنون بالعادة عادة الاشياء وطبيعتها ويعبر بعضهم عنها بسنة الله تعالى في الكائنات ، والذين بحثوا في امكان خرق العادة لم يفرقوا بين شيء وشيء بل جعلوا الكلام في هذا الموضوع على اطلاقه ومن هنا اشتد خلافهم . والذاهبون الى وقوع الخوارق لم يذكروا في الأمثلة التي أوردوها من صور هذه الخوارق الا شيئا يسيرا جدا لا يصلح أن يلتفت اليه خصومهم ، فضلا عن أن يكون به اقناعهم ..

أن لله عز وجل سننا في كل موجود ، أو نقول ان لكل موجود عادة وطبيعة ، والشمس مثلا من جملة الموجودات فهل يقول الذين يعتصمون بالخوارق أنه يمكن أن تصير هذه الشمس برغوثا ، وتبقى هذه الارض على حالها ، ويظل الناس فيها ناسا يبصر بعضهم بعضا بغير نور ويحيون هذه الحياة عينها متمتعين بحدائق وفواكه ، ولحوم وشحوم ، ومياه جارية ، وأزهار زاهية وصيف وشتاء وربيع وخريف ... الى آخره .. الى آخره ؟؟

انا لا أعرف ماذا يقولون ، ولكنى مع أن ايماني كمايمانهم أو اكثر بعظيم قدرة الله تعالى يجدوننى - إذا قالوا في هذه

المسألة « نعم » - مخالفا لهم ، وقائلا : إذا تغيرت سنة الله تعالى في الشمس فصارت هي برغوثا ، تتغير سنته في أيضا فأصير أنا غير انسان وغير باحث عن الخوارق

الذكي يفهم من هذا المثال أن بحث الخوارق المدون في كتب جميع الملل لا يقف أمام نفخة من روح الله الحكيم إذا أراد عز وجل إعلان الفيرة على حكمته وسننه ، ويفهم أيضا أن الدين الذي هو من أكبر هدايا العناية الازلية لا يتوقف عليها .. اذ لو توقف عليها ، وكان لابد في ظهور صدق المأمور بثبليغه من ظواهر خارقة ، لما تيسر تصديق أحد لأن كل واحد حينئذ يخترع فيقتصرح صورة من الخوارق لسنن الله وناظم الكون سبحانه لم يشأ الى الآن نشره على ما يهواه المقترحون

الاقتراحات لا حد لها ولا عد ولا نظام ، هذا يقترح مثلا أن تصير الشمس برغوثا ، وآخر يقترح أن يصير المشتري عصفورا ، وآخر يقترح أن يكون المريخ ( طرطورا ) وآخر يقترح أن تكون الزهرة زهرة لاندبل أبدا ، وآخر يقترح أن ينضب البحر كله وتظل الانهار جارية ، وآخر يقترح أن يصير البحر كله برا أو البر كله بحرا والناس كلهم سمكات مؤمنات مصليات صائمات ، وآخر يقترح أن يكون التراب كله ذهباً ، وثبت عليه أشجار التفاح والليمون ، والاعناب والزيتون ، وآخر يقترح أن يصير الوقت كله ليلا وتحبس الشمس في حجرة من حجرات الملوك ، وآخر يقترح أن يصير الوقت كله نهارا ويذهب النوم الى الشجرات الدائمة اليقظة .. الى آخره .. الى آخره ...

نعم ان مبدع منظومات الكون لم يشأ الى الان نشرها ولا نستطيع أن نقول انه ينشرها على حسب الاقتراحات

لتأييد الرسل ، فما معنى مباحثاتنا مقشر البشر بأنه هل يستطيع ذلك أم لا يستطيع بعد ايماننا بعدم تحد قدرته وبعد سماعنا وحيه يرشدنا بهذا الكلام العالى ( فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا )

بعد تقرير هذا أقول ان البشر لا يستطيعون ان يعرفوا كل سنن الله تعالى أو كل عادات الاشياء وطبائعها ، بل لا يستطيعون ان يعرفوا جميع أسرار كائن من الكائنات وجميع طبائعه بالتمام ، ثم هم لا يعرفون أيضا مقدار عنايته عز وجل بالانسان وانه مازال يمدّه بصنوف الهدايا ، وانه قد يشاء اعلان آية له لظهار عنايته به فبريه شيئا مثلا على خلاف ماتعلمه من عادات بعض الاشياء التي لا يترتب على اختلاف المعروف من عاداتها نثر المنظومات . ومن أمثلة ذلك أن النار شأنها الاحراق وقد تقتضى سنته تعالى لاعلاء معارف الانسان وهدايته أن يريه النار غير محرقة لسبب تتعلق القدرة باخفائه

ان مثل هذا يقع ونعده من جملة سنن الله تعالى لأن من جملة سننه ابداع هذا الانسان واطلاعه على واسع القدرة وبديع الصنعة واحتجاب الحكمة ، واختصاص العناية

ومن هذا التفصيل يتبين للقارىء أنا مؤيدون للآيات لا منكرون لها . . وقصارى ما نقول أن الدين لا يتوقف على الخوارق بقدر ما يقترح المقتصرجون ، ويظن الظانون ، ويخترع المخترعون ، وانما يؤيده الله تعالى بآيات تشرح لها البصائر المستعدة ، ولا نقول ان هذه الآيات فيها تحويل لسنة الله تعالى أو عادة الاشياء وطبائعها اذ لا تبديل لسنة سبحانه ، وانما فيها معونة ربانية نعرفها بآثارها

وربما كرهنا التعبير بكلمة الخوارق التي اصطلح عليها

الكتاب ، وان كانت المناقشة على الانفاظ بغيضة الينا  
وبعيدة عن رأينا . ونحب التعبير بالآيات ( كما عبر القرآن  
الحكيم ) وبالله ما أكثر الآيات على أن ما أتى به هذا  
المختار هو فضل ربانى وأمر روحانى

\*\*\*

لقد انبته الله نباتا صالحا ، وشمله بالعناية منذ كان  
فى الصبا ثم الشباب ، وهو غير شائن ذلك الالهاب ، حتى  
دخل الكهولة وتاق الى التكملة ، وفى هذه السن بداه  
بتحبيب العزلة وتفريغ الفكر من الصور الفسائية ليشرق  
فيه الجلال الذى لا يفتنى ، ثم أعلن لروحه روحا من لدنه  
كما منح هذا من قبله رجالا كثيرين من المصطفين كإبراهيم  
واسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وعيسى .  
ومن الآيات أن هذا الوحي صالح مصلح لنا ولم نجده  
طلب منا أن نعبد من دون الله ، وإنما قال لنا أنا عبد الله  
جئتكم ببلاغ من عنده أنه وحده له الحكم ، وأنه وحده  
اليه المرجع والمآب ، ولو قال لنا أنا الهكم لوجدنا مقترحين  
عليه أن يجعلنا خالدين ، وإذا لوجدناه عاجزا

الحمد لله لقد جاءنا هذا الرسول بآيات كثيرة لانستطيع  
عدها : جاءنا بالعلوم وهو أمى ، وجمع كلمة الشعوب وهو  
وحيد ، ورفع الله له من الذكر ما لم يرفع لمثله ، وجعل  
هديه باقيا ، وصوته عاليا ، وروح تأييده ساريا . . ولذا  
ليس اليوم بنا من تعجب حين نسمع إيمان أقرب الناس  
منه وأعرفهم به بل نحن بخديجة . وأبى بكر مقتدون ، ولربنا  
على هذه العناية والآيات شاكرون ، وبوحي الله لهذا  
المصطفى مؤمنون

## الفصل الحادى والعشرون

### إعلان الدعوة





## الثبات في سبيل الحق

لم تقف فضائل السيدة « خديجة » عندما ذكرناه الى الآن من سيرتها بل هي كاليصابات الثور لا تفيض . والآن يطالع القارئ معنا على ناحية من أعظم النواحي لفضائل هذه السيدة الجليلة . جاء الآن دور الثبات في سبيل الحق ، وهذا الثبات لانجده في كل عصر الا في صحائف افراد ندرتهم بين بنى آدم أعظم من ندرة الياقوت بين الحجارة

لقد مر على بنى آدم الوف من الاعوام ، وفي كل عصر وجد منهم الوف الالوف . ومن كل هذا العدد العظيم لا نعرف مائة امرأة ثبتن في سبيل الحق مع شدة المعارضة ثبات « خديجة » اما ثبات بعلمها الكريم فلا ينبغي أن نقيس به - بعدما قدمناه - ثبات أحد ، فانا قد وصلنا في الفصول السابقة الى بيان انه مؤيد أعظم تأييد ، وانه سمع الوحي الالهى أمرا اياه ان يقوم بأعباء الرسالة والتبليغ ، فأصبح الفرق بينه وبين غيره عظيما جدا منذ اتيه هذا الوحي . وعندنا معشر المؤمنين به انه هو المختار الاعظم ، والمصطفى الاكبر ، فلذلك لا نرى ثباته في سبيل الحق يعادله أو يقاس به ثبات

ظل هذا المختار ثلاث سنين يدعو سرا ، ثم أمر أن يجهر بالامر فلم يجد الى جانبه زوجته تثبط وتخوف أو يضعف قلبها فتؤثر الراحة وطمأنينة البيت على النصب واحتمال الاذى ، بل وجد قرينة على استعداد للوقوف معه بالصبر

والسكينة أمام المعارضين والمعارضات . وما أشد ما كان  
أمام هذا الداعى الى غير ما عرف القوم ، وما أحوج  
هذه الحالة الى قلوب كلما كبر المعاندون كيذا تقول  
« الله أكبر » !

الله أكبر ، كان المعاندون أفرادا وجماعات قد امتلكت  
الانفة والعزة نفوسهم ، واجتذبت قلوبهم ، وامتصت من  
أفئدتهم النداة فأصبحت نسمات الهدى تزعجها ،  
وحرارة الانذار تكاد تحرقها

### قبيلة قريش

قريش وما قريش؟! قبيلة ترى لنفسها السبق في كل  
فضيلة ، والشرف على كل فصيلة ، لها أنوف شامخة  
كانها تطاول السماء ، وأعناق مشرئبة كأنها تتصيد كل  
علياء ، تباهى كل قوم بكثرة النجباء ، وتفاخر من تشاء  
بالعظماء . . مثلها بين القبائل كالشمس مكانة ، وكالروضة  
نضرة وعبيرا

هذه القبيلة التى حالها ماوصفنا من قوة الشكيمة  
وشدة الإباء ومزيد التعالى ، كانت قد أصيبت من الاقتداء  
بمضرته . . إذ كانت بعض العقائد التى صادفتها فى البلاد  
المجاورة قد التصقت بعقولها حتى أصبحت ترى التصدى  
لاقتلاعها منها اعتداء على حقوقها ، وأنتهاكا لحرمانها

هذه القبيلة كان لها من نور الذكاء ما يهر النساظرين  
ولكن قد تراكمت على أفكارها سحب من آثار التقليد  
حالت بين ذكائها وبين الحقائق العالية حتى رايناها تدرج  
مع البلاداء فى مدرج واحد من تأليه صور صماء عمياء  
بكماء جامدة قد صنعتها الأيدي ، فقامت تحسب أن هذه  
الصور تضر وتنفع ، وتجلب وتدفع ، وتقرب الى الخالق  
الأعظم وتشفع

وراحت تعلن أن لهذه الصور مجدا ، وتستحق شكرا  
 وحمدا ، وظلت تصنع لها ما تصنع الامم لآلهتها من تقديم  
 القرابين ، ونذر الندور ، وتوجه النفوس ، وتعلق القلوب  
 نعم ساورت تلك العقائد قلوبها حتى صارت النفوس  
 فيها لا تنبسط لشيء انبساطها لتمجيد تلك الالهة  
 ولا تنقبض لشيء انقباضها للطعن فيها أو النقص من  
 تكريمها

هذه حال القوم الذين أمر هذا الرسول أن يقوم فيهم  
 منبرا وداعيا الى معرفة الله تعالى وتوحيده ، وكانت  
 قريش تعرف هذا الاسم الجليل الدال في هذه اللغة على  
 واجب الوجود خالق السموات والارض ، ولكن لم تكن  
 تعرف ما ينبغي أن يكون عليه جلال الذي يعبر عنه بهذه  
 الكلمة من الكمال والبعد عن مشابهة الحوادث ، وقد  
 جرّها الجهل بالله تعالى وسننه وآياته الى ما جر كثيرا  
 من الامم اليه من جهل كثير من الحقائق . واني لا أشبه  
 نتائج الجهل به عز وجل الا بسلسلة طويلة يستدرج بها  
 ذلك الجاهل الى أسوأ النهايات اذا لم تتداركه الأسباب  
 من عناية الرعوف الرحيم جلّت آلاؤه ، وتعالّت أسماؤه

### (( سلسلة )) الجهل

ولقد كاد حظ قريش من هذه السلسلة - سلسلة  
 الجهل - يصل بها الى مستقر لا تغنيها فيه الرفعة على  
 أمثالها ممن ضرب الجهل خيامه عند خيامهم ، ولا تجديها  
 القوة اليسيرة التي كانت تجدها في اجتماعها ذلك . كاد  
 الاتكال على الأصنام يعفى كل آثار الفطرة منها ، ويطمس  
 كل مظاهر الذكاء ، ويذهب بما تركه فيها من المحاسن  
 بعض فضلاء الاسلاف قبل عهدهم بهذه الالهة التي فتنوا  
 بها . أصبحت لا تعي ما فضل الله ، وما رحمة الله ،

وما عناية الله ، وغدت بعيدة عن معرفة ما الروح ، وما خصائص الروح ، وما عبادة الروح للاحد المحيط بكل شيء ، وراحت تعرض عن العلم بمراقى الامم واتساع دائرتها ، وعن معرفة وظيفتها من اتمام ارادة الخالق باظهار البدائع على يدها ، وظهور آلائه وآثار عنايته عليها ، وأصبح قصارى ما يجول بفكر الواحد من هؤلاء القوم احد شيئين يشيلان في ميزان العقلاء : شيء يرضى به وهمه في الكبرياء ، ولم يدر مغرورهم أن التزلف الى تلك الحجارة وأمثالها هو منتهى التسفل العقلى ، وأن تلك الكبرياء لا تجديهم شيئا اذا دهمهم داهم خارجي ، كما وقع لهم يوم « أبرهة »

هذه السلسلة الطويلة من نتائج الجهل بالله تعالى وسننه وآياته أصبحت قيذا لمداركهم قد أحكمت حلقاته فهم لا يستطيعون مادام موجودا أن يتخلصوا مما هم فيه لأن جاذبا منه يجذبهم من حيث لا يرونه كلما تحركوا

هذه هي السلسلة التي اقتضت عناية الباري أن تظهر آية عظيمة لتحطيمها ، وتخليص تلك النفوس من قيدها . واقتضت الحكمة البالغة والتدبير الأسمر أن يكون ذلك بواسطة من أنفسهم . وأن تجرى الهداية على سننها في الاولين ، فيلاقى الواسطة ما يلاقى ، ويصبر ما يصبر ، ويتم الله ما يريد . ولذلك لما قام هذا المصطفى يعلن هذه الدعوة صادف تلك العقبات ، وما تلك العقبات ؟ جهل وغرور وكبرياء وعتو وقسوة وفظاظة وتعصب للمالوف ونفرة من الوعظ والنصح وابعاء امام الانذار وطفيان وبهتان وعدوان واقدام على قتل الذى يذكر آلهتهم بما يكرهون

اي قلب ، لولا التأييد الربانى ، يجد الى الصبر سبيلا

امام هذه العقبات ؟ واى شخص ، لولا العون الرحمانى ، يصمد للقاء هذه الصوامد ، واى امرأة غير «خديجة» ترى بعلمها فى جوف هذه الغوائل ثم لا تزيده الا حمدا على القيام بوظيفته ، وايناسا يوقوفها معه فى وجه كل خصم للدود

اوذى ( عليه صلوات الله وتسليماته ) بانواع الاذى .  
فحينما اسمعهم الدعوة ، تكاثر المفتاتون عليه والمفترون . .  
وظاهر سوادهم الجاحدون والحاسدون من اقرب اقربائه . .  
ظهر الجاحفون والمتباعدون عنه ، والهازئون به والساخرون منه ، دع عنك صفار النفوس ، ومن اكل قلبهم حسدا او بغضاء ، قال المفترون هو يطلب الملك علينا ، وقالوا عن الوحي الالهى هو شعر جاء به الينا ، وقد حشروا ما عرفوه من العيوب وارادوا ان يعزوها اليه لينفروا الناس منه ، وينتقموا الالتهم التى بدتهم بجحودها ، وكشف لهم نقيصة جمودها ، وايسر ما فعلوه سبهم اياه والهزم به والافتراء عليه ومجافاته ثم مجافاة من لم يعجافه فعلوا كل هذا وهو متلذذ بالصبر ، مشابر على الصدع بالامر ، وفى هذا كانت معه هذه الزوجة الشريفة الفاضلة تعلم محبى الحق كيف يكون الصبر من اجله ، وتهدى الى الاجيال الآتية اجمل صورة لثبات الجاش امام الصعوبات وما أحلى الصبر اذا كانت عاقبته كعاقبة صبر هذا الرسول الكريم ، فقد كانت العقبة ذلك الفوز العظيم الذى ليس فى الدنيا من لم يسمع خبره ، ولنعم عقبى الصابرين .

### خلاصة الدعوة

اما الدعوة الشريفة التى أعلنها ، فهذه أركانها :  
(١) العلم بأن لا شىء يستحق التأليه الا الله الخلاق العظيم الذى لا يشبه الحوادث ولا يشبهه شىء منها

(٢) العلم بأن هذا الباريء المصور ذو عناية خاصة بالنوع الانساني، ومن عنايته به اتحافه بصنوف الهدايا، ومنها الهداية بواسطة وحى أعلى للرسل المصطفين

(٣) العلم بأن هذا الداعي الجديد الى الله هو رسول مصطفى قد أرسله الله بدين يدعو الى السعادة في هذه الحياة وحياة أخرى يوم الجزاء

(٤) العلم بأن الايمان بهذا الرسول يقتضى الاذعان والتسليم الى كل ما جاء به

هذه أركان الدعوة التي كان مأمورا أن يبدأ بها الناس وهى ملخصة بهاتين الجملتين الشريفتين « لا اله الا الله محمد رسول الله » فمن قالهما مطمئنا بهما قلبه دخل تحت اللواء المحمود لواء المحمدية الذى يظل مئات الملايين فى يومنا هذا

والرسالة المحمدية لم تكن لقريش ، ولا للعرب خاصة، بل هى للناس كافة ، ولكن البدء بالعشيرة الاقربين كان هو الذى تقتضيه الحكمة حتى اذا أجابوا كانوا عوناً للدعوة لا عوناً عليها

### بعد عشر سنوات

بعد عشر سنين من عهد الرسالة كان المؤمنون قد كثروا واخذ العناد من الخصوم يزيد ، وجعل الحسد يلتهب فى قلوبهم لهذا النجاح الذى كانوا يحسبونهم محالاً ، وكم يحسب أمثالهم مثل هذا الحسبان

كان الجاحدون فى نار من ذلك الحسد ، والمؤمنون فى جنة من الفرح بنعمة الله وبرحمته . . كان الجاحدون يفكرون كيف يزهقون هذا الروح الجديد ، والمؤمنون ينتظرون من مولا هم اعلاء شأنه . كان الجاحدون حيارى

في هذا الداعي ، فطورا يسبون وطورا يهزأون به .. وأحيانا يرجعون الى انفسهم ويحاسبون حسهم وعقلهم فيه ، فيجدونه بعيدا عن الخداع وسائر المظان التي كانوا يظنون ، وكان المؤمنون من يقينهم في حظ عظيم من الطمأنينة وانسراح الصدر وفرح الضمير .. كان الجاحدون يرجعون الى تلك الحجارة فيشكون اليها المحمدين وما أتوه من مخالفة قومهم وتأيد ذلك الرجل الذي لا يذكر آلهتهم الا بسوء ، وكان المؤمنون يرجعون الى من لا تدركه الأبصار متوجهة اليه وجوههم ، مسلمة اليه قلوبهم ، لا يتوكلون الا عليه ، ولا يأخذون الا بسننه - كان الجاحدون عكوفاً حول تلك الاصنام الجامدة ، وكان المؤمنون يقولون سبحان الله عما يصفون ، تعالى الله علواً كبيراً .. كان الجاحدون كثيرى الغم والهم ، وكان المؤمنون مع شدة ما لاقوه من الأذى فرحين مستبشرين قد أبدل الله لهم مرارة الصبر حلاوة ، وذلة القلة عزة

وفي أواخر تلك السنين العشر الشداد كان على سرير الاحتضار شخص عزيز جداً عند المؤمنين . ولم يشمت الجاحدين - تلك الايام - شئ مثل مفادرة هذا الشخص لذلك العالم الاسلامي الذي نشأ وترعرع بينهم بالرغم منهم

كان في هذا الشخص العزيز روح ترفرف في هذا المحيط الصغير ، تارة ترفع البصر الى مقرها الأقدس عند المحيط الأعظم فتحاول الطيران اليه وتارة تلقى به على هذا المحيط الذي أنست به فتظل مرفرفة عليه وجانحة الى العكوف لديه ، وكان جاذب من قلوب هذا العالم الاسلامي يتمنى بقاءه ، وجاذب من أمر الله وسنته يقضى بطيرانه ، وأمر الله أعلى وأليه المصير

هل عرف القاريء من هذا الشخص العزيز ؟ ذلك كان

سُبِّح سيدتنا « خديجة » فقِفْ أيتها القلم خاشعا ، لقد ماتت من تركت للفضائل حياة لا تنفى .. لقد انتهى هذا العمر الذى أمدك بهذه المواد السامية ، ولن تجد لك أيتها القلم شرفا بعد هذه السيرة الا اذا قمت بنقل التاريخ الحى

سبحان رب الكون هذا حكمه  
فى الروح قد سيمت بهذا الواقع  
مرآتها هذا الشخصوس بها ترى  
زمننا وترجع للمحيط الواسع

نقد مررت روح سيدتنا « خديجة » بهذه الدار فرأينا منها مآقلاها للقارىء ، والآن هى لدى المحيط الواسع ، فهل تتجلى اليوم على هذا العالم الذى مررت به وترى أن تلك الكلمة التى قاست فى سبيلها مع بعلمها الكريم ما قاست قد أعلاها الله تعالى وعظم شأنها ونصرها العرب وغير العرب وأصبحت برور الأرض وبحورها مملوءة كل هذه العصور الى يومنا هذا بمن يقول من جميع أجناس البشر : « لا اله الا الله محمد رسول الله » ؟

وقد ولدت سيدتنا « خديجة » من زوجها الكريم بنين وبنات ، وبقيت لها من بنتها السيدة « فاطمة الزهراء » ذرية مباركة فى أكثر أقاليم الأرض والحمد لله ، ولكن هل تتجلى اليوم تلك الروح الشريفة وترى أن كل المؤمنين يعدون اليوم اولادها ؟ ..

فاسلام عليك يا أم المؤمنين ، سلام الله ورحمته وتحياته على روحك الطاهرة يا أمه ..



# فهرس

## صفحة

|   |     |
|---|-----|
| الكتاب والمؤلف                          | ٧   |
| اهداء                                   | ١٣  |
| مقدمة الكتاب                            | ١٧  |
| حالة قریش الاجتماعية حين البعثة         | ٣٣  |
| بيوتات قریش                             | ٤٣  |
| ديانة أهل مكة حين البعثة                | ٥١  |
| مقام المرأة عند قوم خديجة               | ٥٩  |
| مقام خديجة عند قومها                    | ٧١  |
| فضائل خديجة                             | ٧٧  |
| جمال خديجة                              | ٨٩  |
| نعمة الثراء                             | ٩٧  |
| زواجها قبل النبى (ص)                    | ١٠٩ |
| محمد عليه الصلاة والسلام قبل زواج خديجة | ١١٣ |
| الحب الشريف                             | ١٢٩ |
| تفاؤل هذا وقته                          | ١٣٥ |

|                        |     |
|------------------------|-----|
| خواطر في قلب خديجة     | ١٤١ |
| الزواج                 | ١٤٧ |
| بعد الزواج             | ١٥٣ |
| العمل الروحي           | ١٥٩ |
| بدء الروح              | ١٧٥ |
| الدلة العقلية          | ١٨٣ |
| الدليل الثقلي          | ١٩٥ |
| الايمان وخوارق العادات | ٢٠٥ |
| اعلان الدعوة           | ٢١٥ |



## وكلاء مجلات دار الهلال

العراق : السيد محمود حلمي - المكتبة العصرية  
ببغداد

اللاذقية : السيد نخلة سكاف

جدة : السيد هاشم بن علي نحاس - ص ٥ ب ٤٩٣

البحرين : السيد مؤيد احمد المؤيد - ص ٥ ب ٢١

Dr. Michel H. Tomé,  
Praeto Do Colegio No.  
3º Andar — Sala 9  
SAO PAULO — BRASIL  
البرازيل :

Mr. Hussein Abi Hassan,  
P.O. Box 2561,  
ACCRA, GHANA  
غانا :

Messrs. Allie Mustapha & Sons,  
P.O. Box 410,  
Freetown Sierra Leone  
سيراليون :

M. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit,  
Almaktab Attijari Asshargi,  
P.O. Box 2205,  
SINGAPORE  
سنغافورة :

ARABIC PUBLICATIONS  
DISTRIBUTION BUREAU,  
7, Bishopsthorpe Road,  
London S. E. 26,  
ENGLAND  
انجلترا :

Mr. Mohamed Said Mansour,  
Atlas Library Company,  
126, Nnamdi Azikiwe Street  
LAGOS NIGERIA  
نيجيريا :

## هذا الكتاب

يصور هذا الكتاب نواح عدة ،  
 لم يسبق أن عالجها كاتب من قبل ،  
 في حياة السيدة خديجة أم  
 المؤمنين - زوجة النبي محمد عليه  
 الصلاة والسلام - التي ناصرت  
 نبوته ، وعاونت على رفع راية  
 الاسلام ، وجاهدت في سبيل  
 الدعوة الاسلامية سنوات . وقد  
 كانت سيدة نادرة المثال جمعت  
 بين سماحة الخلق ، وصحة الادراك ،  
 وسلامة الفطرة ، وعظمة النفس ،  
 ولعبت دورا في حياة الرسول  
 الكريم أبرزه المؤلف في دراسة  
 عميقة رصينة شائقة . ولا عجب ،  
 فهو علم من اعلام الاسلام وعربي  
 من خيرة العرب دينا ووطنية

Bibliotheca Alexandrina



0248147